
نسخة منقحة
FIFA WORLD CUP
RUSSIA 2018
جوليان بارنز
الإحساس
بالنهاية
ترجمة: طلال فيصل

جوليان بارنز

الإحساس بالنهاية

ترجمة: طلال فيصل



الإحساس بالنهاية

هذا الكتاب بدعم من:



مبادرة 1001 عنوان

الإحساس بالنهاية

تأليف: جوليان بارنز
ترجمة: طلال فيصل
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-10-107-9



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الثانية 2018

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae




إلى بات

أوّلاً...

أتذكّرُ بعض التفاصيل، على نحو مبعثر:

– باطنَ رسغ لامع.

– الدُّخان المتصاعد من حوض مبلّل حين أُلقيَت فيه – وسطَ ضحكٍ كثير– مقلاة ساخنة.

– لطخات سائل منويّ تدور في فتحة حوض، قبل أن تُشطَف في أنبوب الصّرف الممتدّ من أعلى البيت إلى أسفله.

– نهرٌ تتدفّق أمواجه صعودًا عكس مجراه بشكل غير معقول، فيما تُضيئها دزّينة من الكشّافات التي تلاحقها؛

– نهر آخر، عريض وقاتم، تُعاكس ريحٌ قويّة اتّجاه تيّاره فتُثير مياهه.

– مياه استحمام بردت منذ وقت طويل خلف باب مغلق.

هذه الأخيرة ليست ممّا رأيته فعليًا، لكن ما تتذكّره ليس هو بالضرورة ما حدث.

نحن نحيا في الزمن –الذي يقبض علينا ويُشكّلنا– لكني أتصوّر أني

لم أفهم ذلك ولم أشعر به قط. لا أشير بكلامي إلى تلك النظريات المتعلقة بالزمن، من قَبيل كيف ينعطف وكيف يكرّر نفسه، أو أنه يوجد في مكان آخر بشكل موازٍ. لا. إنما أعني الزمن العادي، المتكرّر يوميًا، الذي تؤكد لنا ساعات اليد والجدران مروره بانتظام: تِكْ تُكْ، كلِكْ كلُكْ. هل يوجد شيء قابل للتصديق أكثر من تلك الحقيقة المستهلكة؟ وبعد كل شيء، هل نحتاج سوى إلى قليلٍ من الألم أو البهجة لندرك مدى طواعية الزمن؟ بعض الانفعالات تُسرّع مِن إيقاعه، وبعضها تُبطئه، وأحيانا يبدو-حتى نقطة معينة- غير موجود، مفقودًا ولا سبيل لاستعادته.

لست مهتمّا بأيّام الدراسة، ولا أشعر بالحنين نحوها. لكن المدرسة هي المكان الذي بدأ فيه كل شيء، لذا أجدني بحاجة للعودة باقتضاب إلى بعض الحوادث التي نمَت وصارت حكايات، وإلى بعض الذّكريات غير الدّقيقة التي تكفّل الزّمن بتحويلها إلى حقائق. فإذا لم أكن قادرًا على التيقّن من الأحداث مرة أخرى، فإنّه في مقدوري التيقّن من الانطباعات التي تركتها فيّ على الأقلّ. وذلك أقصى ما يمكنني السّيطرة عليه.

كُنّا ثلاثة، وصار هو رابعنا. لم نكن نتوقّع أن نضمّ أحدًا إلى مجموعتنا المُغلقة؛ كانت دوائر الصّداقات والجماعات قد تكوّنت من زمن طويل، وكنّا على عتبة التّفكير في أمر انتهائنا من المدرسة

والخروج إلى الحياة أخيرًا. كان اسمه أدريان فِن: صبيٌّ طويل وخجول، يحتفظ بعينيه تنظران إلى الأرض، وبما في رأسه لنفسه. خلال أوّل يوم له في المدرسة، أو يومين، لم يُلفت انتباه أحد؛ فمدرستنا لا تُقيم حفلات ترحيب للطلّاب الجدد (بغضّ النظر عن العكس: تعريفه بالعقوبة التأديبيّة لكلّ مخالفة). لقد سجّلنا وجوده ولبثنا ننتظر.

كان المدرسون أكثر اهتماما به منّا؛ إذ عليهم التحقق من ذكائه وانضباطه، وتقدير مدى ما تعلّمه من قبل، وإذا ما كان سيُثبت أنّه "خامة صالحة للحصول على مِنحة". خلال اليوم الثالث للفصل الدراسي في الخريف، كانت مُقرّرةً علينا حصّة تاريخ مع المعلّم جو هنت الأب، الذي يرتدي دومًا بذلته ذات القطع الثلاث اللطيفة، وله طريقته في الحفاظ على النظام، وهي تعتمد على قَدْرٍ لا يُستهان به من الملل.

"حسنًا، لعلّكم تذكرون أنّي طلبت منكم أن تأتوا مستعدّين إلى الحصّة وذلك بأن تقرؤوا حول فترة حكم هنري الثامن". نظرتُ أنا وألكس وكولن بعضنا إلى بعض، آملين ألّا يسقط السؤال فوق رأس أحدنا. "من يُحبّ أن يتقدّم ويصف لنا ذلك العصر؟" أدركَ المدرّس الموقف من خلال أعيننا التي كانت تتحاشاه، فقال: "حسنًا، مارشال، ربما يمكنك أن تصف لنا فترة حكم هنري الثامن؟"

كان شعورنا بالارتياح أكبر من فضولنا؛ لأن مارشال كان بليدًا

حذرًا لا يحمل أيّ شيء ممّا في الجهل الحقيقي من ابتكار. بحثَ عن التعقيدات المحتملة الكامنة في السؤال قبل أن يُعطي جوابه: "كانت هناك اضطرابات، أستاذي".

انفجرت الضحكات غير القابلة للسيطرة تمامًا، حتى أنّ المدرّس نفسه ابتسم، ثم قال: "هل يمكنك أن تُسهب قليلًا في إجابتك؟"

أومأ مارشال برأسه موافقًا. فكّر فترةً أطول قليلًا، ثمّ قرّر أن الوقت ليس مناسبًا للحذَر، فقال: "يمكنني القول إنه كانت هناك اضطرابات عظيمة، أستاذي!"

"فِن، إذن، هل يمكنك أن تحدّثنا عن تلك الفترة؟"

كان الصبيّ الجديد يجلس إلى صفّ الطاولات الذي يليني مباشرة، إلى اليسار. لم يكن قد أظهر أيّ ردّ فعل على حماقات مارشال.

"لم يجرِ كما ينبغي، أستاذي. لكن هناك عبارة تنطبق على أيّ حدث تاريخيّ، بما فيها اندلاع الحرب العالمية الأولى مثلًا، وهي: إنّ شيئًا ما قد حدث!".

"فعلًا؟ حسنًا، هذا يُنهي مهمّتي كمعلّم تاريخ، أليس كذلك؟"

بعد عدّة ضحكات متملّقة، التمس جو هنت الأب العذرَ لتكاسلنا بعد العُطلة، وزوّدنا بعدّة معلومات عن هنري الثامن، الجزّار الملكيّ متعدّد الزوجات.

في الفسحة التالية، ذهبتُ إلى فِن. "أنا توني وبستر" نظر نحوي بحذر "كان ردّك جيّدًا على هنت" بدا وكأنه لا يعرف ما أعنيه "حول

أن شيئا ما قد حدث..."

"أوه، نعم. لقد أحبطني نوعًا ما أنه لم يتّخذ أيّ ردّ فعل"

لم يكن هذا هو الجواب الذي توقعتُه.

أتذكّرُ تفصيلًا آخر: ثلاثتنا، وعلى سبيل تأكيد عُمق صداقتنا، ارتدى كلّ واحدٍ منّا ساعة يده بينما وجهها إلى باطن الرسغ. كان ذلك متكلّفًا بالطبع، لكنه كان يعني لنا وقتها كثيرًا ربما. كان يجعل الزمن يبدو مثل شيء شخصيّ، أو حتى سريّ. توقّعنا أن يلاحظ أدريان الإشارة، وأن يرتدي الساعة مثلنا. لكنّه لم يفعل.

لاحقًا في ذلك اليوم -أو ربما في يوم آخر- كان مُقرّرًا علينا حصّتا لغة إنجليزية مع فِيل ديكسون، وهو مدرّس شاب تخرّج توًّا من جامعة كامبردج. كان يحبّ الشّرح باستخدام نصوص مُعاصرة، وإلقاء الأسئلة المفاجئة مِن قَبيل "الميلاد والتزاوج والموت... ذاك كلّ ما يتحدّث عنه ت. إس. إليوت (T.S.Eliot) هل من تعليق؟" وراح ذات مرّة يقارن بين البطل الشكسبيريّ وبين البطل في فيلم سبارتاكوس (Spartacus) كما جسّده الممثّل كيرك دوغلاس (Kirk Douglas). وأتذكّر، بينما كنّا نُناقش ذات مرّة أشعار تيد هيوز، كيف راح يهزّ رأسه بطريقة متحذلقة ويغمغم ساخرًا "بالطبع، لابدّ أن نفكّر جميعًا في ما سيحدث لو نفد كلّ ما لديه من حيوانات![1]"

(1) الحيوانات هي الملمَح الأهم في شعر تيد هيوز.

كان في كثير من الأحيان يخاطبنا كالكبار بالقول "أيّها السّادة..." ولهذا غدونا، بالطّبع، مُعجبين به.

خلال ظَهيرةٍ ما، وزّع علينا أوراق قصيدة دون عنوان ولا تاريخ ولا اسم مؤلف، وأمهلنا عشر دقائق كي نقرأها. ثم بدأ يسألنا.

"هل نبدأ بك، فِن؟ هل يمكنك أن تقول لنا، ببساطة، عمّ تتحدث هذه القصيدة؟"

نظر فِن نحوه قائلا "إيروس وثانَتوس، سيدي"

"امم، استمر"

"الجنس والموت..." واصل فِن كلامه، كأنّ أغبياء الصفّ الأخير بطيئي الفهم هم وحدهم من لا يعرفون اللغة اليونانية. "... أو الحُب والموت، لو كنتَ تفضّل ذلك. المفهوم الحسّي في كلّ أيّ أحواله، وصراعه مع مفهوم الموت، وما ينشأ عن ذاك الصّراع، أستاذي"

كنت أبدو أكثر انبهارًا ممّا كان ينبغي، بحسب تعليق ديكسون.

"وبستر، هل أَضِئ لنا النصّ أكثر"

"لقد ظننتُها قصيدة عن بومةٍ بيضاء (Barn owl)، أستاذي"

ذاك كان أحد الاختلافات بيننا وبين صديقنا الجديد. كنّا نبدو كالحمقى، حتى ونحن جادّون، بينما يبدو هو جادًّا، حتى لو كان يهزل. استغرق إدراك تلك الحقيقة منّا وقتًا لا بأس به.

ترك أدريان فِن نفسه يذوب وسط مجموعتنا، دون أن يصرّح أنّه يسعى إلى ذلك. وربما لم يكن يسعى إليه، فلم يغيّر آراءه لتوافق آراءنا. في صلوات الصباح المدرسيّة، كان يُمكن سماع صوته بوضوح مُشارِكًا الجميع في الكورال، بينما أنا وألكس بالكاد نحرّك شِفاهنا مع الكلمات، فيما كان كولن يفضّل الحيلة الساخرة المتمثّلة في الصّياح الحماسيّ المُفتعَل. كنّا ثلاثتنا نعتبر الرياضة المدرسيّة خطّة سريّة فاشيّة لكبت رغباتنا الجنسيّة، بينما انضمّ أدريان إلى نادي القَفز فوق الحواجز وأدّى قفزات عالية. حِسّنا الموسيقيّ كان معدومًا كأننا صُمّ، بينما هو جاء إلى المدرسة بآلة اليراعة[2] خاصّته. حين عابَ كولن نظام "الأسرة" وأنها اللبنة التي تُكوّن المجتمع وتبنيه، ورحتُ أسخر من النظام السياسي أيضًا، وخرجت من ألكس بعض الاعتراضات الفلسفيّة حول الطبيعة المُدرَكة للواقع فيما، احتفظ أدريان برأيه، إلى حِين على الأقل. كان يعطي انطباعًا أنّه يؤمن بما يجري حولنا. نحن كذلك أيضًا، لكن كل ما في الأمر هو أننا نريد أن نؤمن بأنفسنا، لا أن يقرّروا هم لنا ما ينبغي الإيمان به. لذلك كنّا نمارس ما نظنّه شكًّا تطهُّريًّا.

تقع المدرسة في قلب لندن. كنا نسافر إليها من جهات مختلفة كلّ

(2) آلة اليراعة أو كلارينت هي آلة نفخ في الجوقة الموسيقية. معظم آلات الكلارينت مصنوعة من الخشب. يعود أصلها إلى الحضارة المصرية القديمة، وتطور تصنيعها بالتعديلات التي أدخلها عليها عام 1700 صانع الآلات الألماني يوهان كريستوف دينر. لكنها لم تحتل مكانتها في "الأوركسترا" إلا بعد ثمانين عاماً على يد موتسارت.

يوم، عابرين من نظام تحكُّم إلى آخر. كان كل شيء في تلك الأيّام أبسط: النقود أقلّ، وليس ثمّة أجهزة إلكترونية، والموضة أقلّ استبدادًا، فضلًا عن أن المجتمع لم يسمح وقتها باتّخاذ حبيبة دون زواج. لم يكن هناك ما يشتّتنا عن مهمتنا الإنسانية كأبناء: أن ندرس وننجح في الامتحانات ونستغل إمكاناتنا في الحصول على وظيفة فنحقّق حياة لا يهدّدها شيء، حياة أكثر كمالًا من حياة آبائنا، حياة سوف يستحسنونها حين يقارنونها في خَلواتهم بحياتهم الباكرة التي كانت أبسط، وبالتالي أفضل. بالطبع، لم يتمّ التّصريح بأيّ شيء من كل ذلك؛ فالحركة الداروينيّة الاجتماعيّة[3] النّاعمة للطبقة الوسطى في إنجلترا بقيّت هي السّائدة.

"ملاعينٌ سخفاء... كلّ الآباء والأمّهات..." صاح كولن شاكيًا، في أحد أيام الإثنين حول طعام الغداء. "تظنّهم جيّدين في صِغَرِك، ثم لا تلبث أن تكتشف أنّهم..."

"هنري الثامن، يا كول؟" قال أدريان. بدأنا نعتادُ حسّه السّاخر، مع حقيقة أنه يمكنه أن ينقلب علينا جميعًا. حين يغيظنا، أو يدعونا للكلام بجديّة، كان يخاطبني مثلًا باسم "أنتوني". ألكس يصبح

(3) الداروينية الاجتماعية هي نظريّة حول الارتقاء الاجتماعي والحضاري، أي التطوّرات والتغيّرات التي تطال التجمّعات الاجتماعية البشرية. تؤمن أن المجتمعات تتقدم خلال مراحل من التطوّر والاصطفاء الدائم للمفاهيم الأصلح اجتماعيًا، وبالتالي فإن المجتمعات تتوجّه إلى الأفضل دومًا. الشّاهد هنا او أن وبستر لا يؤمن بذلك، بل يؤمن بعكسه تمامًا: الماضي هو الأفضل.

الإسكندر، واسم "كولن" الذي يستثقل طولَه، يختصره إلى "كول".

أجابه كولن "لن يكون لديّ مشكلة لو تزوج أبي عشر زوجات..."

"وصار فاحش الثراء"

"وقام الرسام هولباين[4] برسم صورته"

"وقال للبابا أن يُغلق فمه ويرحل بعيدًا"[5]

سأل ألكس كولن "هل هناك أي مبرر محدد يجعل منهم ملاعين سخفاء كما قُلت؟"

"كنت أريد الذهاب إلى المتنزه لكنهم قالوا إنهم سيقضون عطلة نهاية الأسبوع في تشذيب الحديقة"

حقًا: إنهم ملاعين سخفاء، باستثناء أدريان الذي كان يستمع لاستنكاراتنا، لكن نادرا ما كان يُبدي رأيًا فيها. رغم ذلك، كانت أسبابه تبدو كأنها أقوى منّا جميعًا. غادرتهم والدته قبل سنين، تاركة أباه ليتدبّر أمر أدريان وأخته. حدث ذلك قبل وقت طويل من ظهور وانتشار مفهوم "الأبوّة –أو– الأمومة دون زواج". وقتها، كان يُنظر إلى أُسرتهم على أنّها "بيتٌ مهدّم" وكان أدريان هو الولد الوحيد من بين معارفنا مَن له خلفيّة كهذه. كان ينبغي أن يمتلئ صدره بثَوْرَة وجوديّة جرّاء حياته، لكن ذلك، بطريقة ما، لم

(4) هولباين (1543-1497) فنّان ألماني من عصر النهضة، ولد في آوغسبورغ، ويُعتبر من أكبر رسامي اللوحات الشخصية (بورتريهات) في عصره.

(5) إشارة إلى تصرّفات هنري الثامن المتمردة على سُلطة الكنيسة.

يحدث. قال إنه كان يحبّ والدته ويحترم أباه. كنّا نحن الثلاثة، بشكل خاص وفيما بيننا، نفكر في حالته وتوصّلنا إلى نظريّة مفادها أن مفتاح الحياة الأُسَريّة السّعيدة هو ألا تكون أُسَريّة على الإطلاق – أو على الأقل ألا يعيش الوالدان معًا. بعد التوصّل لهذا التحليل، ازددنا حسدًا لأدريان.

في تلك الأيام، كنا نشعر أننا محبوسون في انتظار الخروج لحياتنا. وحين جاءت تلك اللحظة، حين خرجنا، تسارعت وتيرة حياتنا ومضت– حتى إيقاع الزمن ذاته انطلق. كيف لنا أن نعرف وقتئذ أنّ حياتنا بدأت، أنّنا بالفعل شرعنا في تحصيل أرباحٍ ما في جهة والتعرّض للتّلف في جهة أخرى؟ كيف لنا أن نعرف أن إطلاق سراحنا لن يكون إلا لسجنٍ أكبر، بجدران لا يمكننا إدراكها؟

في الوقت ذاته كنّا جوعى للقراءة، جوعى للجنس، نؤمن باللاسلطويّة[6] ونعتقد بمبدأ الاستحقاق[7]. كانت كل النظم السياسية والاجتماعية بالنسبة لنا فاسدة، ومع ذلك نبحث عن بديل آخر غير الاستسلام لفوضى اللذّة. كان أدريان يدفعنا للإيمان

---

(6) اللاسُلطويّة هي فلسفة سياسية تتهم الدولة باللاأخلاقية وتُعارضها في تسيير العلاقات الإنسانية. يدعو أنصار اللاسلطوية (اللاسلطويون) إلى مجتمعات من دون دولة/سُلطة، مبنيّة على أساس جمعيّات تطوّعية غير هرميّة.

(7) الاستحقاق هو نظام إداري وسياسي تُسند فيه التكليفات والمسؤوليات إلى الأفراد على أساس "استحقاقهم" القائم على ذكائهم وشهاداتهم ودرجة تعليمهم، التي تقاس عن طريق التقييم أو الاختبارات.

بتطبيق الأفكار في الحياة، حيث تتولى المبادئ قيادة التصرّفات. قبل ذلك، كنا ننظر إلى ألكس بوصفه الفيلسوف بيننا. كان قد قرأ كتبًا لم نقرأها، فأمكنه أحيانًا أن يعلن فجأة، على سبيل المثال، "إذا لم يكن بوسعنا الكلام، فإنّه ينبغي علينا لزوم الصّمت!" وأفكر أنا وكولن في فكرة الصمت تلك بُرهةً، ثم ما نلبث أن نقطّب جبينَينا ونواصل الكلام. لكن وصول أدريان أزاح ألكس عن مكانه، أو بالأحرى منحنا فيلسوفًا بديلًا. إذا كان ألكس قد قرأ رَسِل (Russell) وفتجنشتاين (Wittgenstein)، فقد قرأ أدريان كامو ونيتشه. أنا قرأت جورج أورويل وألدوس هكسلي (Aldous Huxley)، بينما قرأ كولن بودلير ودوستويفسكي. هذا التصوير الكاريكاتوري هو ما كانت عليه مجموعتنا!

نعم، كنّا بالطبع مدّعين (ما الهدف من الشّباب إذن؟) كنا نستعمل مصطلحات مثل "رؤية كونية" و"العاصفة والاندفاع[8]" وكنا نستمتع بترديد عبارة "هذا أمر مُبرهن فلسفيًا" وكنّا واثقين أن وظيفة الخيال الأولى هي أن يجتاز الحدود كلّها. كان آباؤنا يرون الأمور بصورة مختلفة، متصورين أننا أطفال أبرياء تعرّضوا

---

(8) العاصفة والاندفاع هي حركة أدبية امتدّت بين عامَي 1767 و1785. أخذت هذه التسمية من اسم مسرحية فريدريش ماكسيميليان فون كلنجر. ويتميز عصر العاصفة والاندفاع بتمجيد العاطفة البشرية الجارفة والقلب المتأجج بالشعور، وبعدم الاهتمام بالعقل الذي كان سائدا في عصر التنوير. ومن الأعمال الأدبية التي كتبت في ذلك العصر رواية غوته "آلام الشاب فرتر".

إلى مؤثّرات فاسدة. كانت والدةُ كولن تطلق عليّ لقب "الملاك الأسود". وتوجّه أبي باللوم إلى ألكس، حين وجدني أقرأ المانفستو الشيوعي، وتوجّهت أصابع الاتهام إلى كولن عندما وجد أهل ألكس معه رواية أمريكية من فئة روايات الجرائم والتحريّات. وهكذا. الأمر نفسه يحدث مع موضوع الجنس؛ كان أهلنا يخافون أن نتحوّل إلى أقصى ما يُثير رعبهم: مُدمنين على العادة السريّة، أو شواذّ صاخبين، أو مُنحَلّين متهوّرين نورّط الفتيات بالحمل. كانوا خائفين من الصداقة المتينة بين المراهقين، وسلوك الغرباء المفترس في القطارات، وإغواء البنات الفاسدات. كم كانت المسافة شاسعة بين مخاوفهم وبين خبراتنا.

ذات مساء، طلبَ منّا الأستاذ جو هنت الأب، وكأنما ردًّا على تحدّي أدريان القديم، مناقشة دوافع الحرب العالمية الثانية وجذورها، لا سيّما دور اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند في إشعالها. وقتها كنا مولعين بالمُطْلَقات: نفضّل من الإجابات "نعم" أو "لا"، المدح أو الذم، الإدانة أو التبرئة، أو كما قال مارشال في جوابه السّابق: الاضطرابات، أو الاضطرابات العظيمة! كنّا نحبّ اللعبة التي تنتهي بالفوز أو الخسارة، لا التعادل. هكذا، بالنسبة لبعضنا، كان المسلّح الصّربي، الذي غاب اسمه عن ذاكرتي، مسؤولًا بشكل تام عمّا حدث: حاوِل انتزاعه من المعادلة، وستجد أن الحرب كانت

مستحيلة الحدوث. بينما فضّل البعض الآخر إلقاء المسؤولية على الدوافع التاريخية، التي وضعت القوميّات المتضادة في مسار ينتهي حتمًا بالصّدام "كانت أوروبا برميلًا من البارود ينتظر الاشتعال" وهكذا. أمّا الأكثر عبثّية ولاسُلطويّة منهم، مثل كولن، فقد تحدثوا عن أن كل شيء خاضع للصّدفة، وأن العالم انبثق أصلًا من حالةٍ من الفوضى، وما زال عليها، وبالتالي ليس هناك ما يدعو للتفكير سوى أننا نحمل غريزةً بدائيّةً لنسج القصص، أنتجت لنا الأديان منذ سنين، وهي التي تخلع معنىً على كل ما حدث وما لم يحدث أيضًا حتى الآن.

منح هنتُ كولنَ إيماءة موجزةٍ لمحاولته هدم كل شيء، كأنّ داء الكُفر هو نتيجة طبيعية للمراهقة، لن تلبث أن تكبر فتُشفى منه. اعتاد الأساتذة والآباء أن يذكّرونا بشكل مثير للأعصاب أنهم هم أيضًا كانوا صغارًا، وأنه بإمكانهم الحديث من موقع سُلطة. يصرّون على تلك الفكرة، أنّ ما نؤمن به هو وليدُ مرحلة نعيشها، مجرّد مرحلة، وأننا سنكبر ونتجاوزها؛ ستُعلمك الحياةُ الحقيقةَ وكيف تكون واقعيا. لكننا وقتها كنا مقتنعين أنهم لم يكونوا أبدا مثلنا في مرحلة مراهقتهم، وأننا اقتنصنا الحياة –وقبضنا على الحقيقة، والأخلاق، والفن– أكثر ممّا فعله أولئك الكبار المتصالحون.

"فِن، أراك تجلس هادئًا! لقد دفعتَ أنت هذه الكرة، وأراك صامتًا، كأنك أنت الصربيّ المسلّح!" توقّف هنت عن الكلام قليلًا ليترك

تلميحاته تصل كاملة. "هل يمكنك أن تتفضل وتُدلي بأفكارك حول الموضوع؟"

"لا أعلم، أستاذي"

"ما الذي لا تعلمه؟"

"حسنًا، من جهة، لا يمكنني أن أعلم ما الذي لا أعلمه. هذا أمر مُبرهن فلسفيًا." أعقب ذلك برهة من الصمت جعلتنا نتساءل ما إذا كان يبطّن كلامه بسخرية خفيّة، أم أنّه جادّ تماما. "هل إلقاء المسؤولية على أحد هو نوع من الهروب؟ كأننا نريد أن نتوجّه باللوم إلى فردٍ كي تتمّ تبرئة الباقين، أو نلوم حركة التاريخ ونبرئ الجميع، أو نتصوّر الأمر مجرّد عبث فوضوي. وكل ذلك يوصلنا إلى النتيجة نفسها. يبدو لي أنه كانت هناك –وما تزال– سلسلة من المسؤوليّات الفرديّة، جميعها ضروريّة، لكنها ليست متتالية بحيث يمكن للجميع أن يُلقوا اللوم ببساطة من خلالها على الآخرين. لكن، بالطبع، رغبتي في تحميل المسؤولية ربما تكون انعكاسًا لأفكاري أكثر منه تحليلًا منصفًا لما حدث. هذه إحدى المشاكل المركزية في مفهوم التّاريخ، أليس كذلك؟ سؤال الموضوعيّة إزاء ذاتيّة التفسير، وحقيقة أننا بحاجة إلى فصل التاريخ عن المؤرّخ نفسه كي نستطيع أن نفهم الصّيغة التي تستقر بين أيدينا للتاريخ أو أيّ حادثة منه"

حلّ الصّمت. ولا، لم يكن يسخر منه، إطلاقًا.

نظر جو هنت الأب إلى ساعته وابتسم "فِن، سأتقاعد بعد خمس

سنوات. ويسعدني أن أشير إلى بعض المراجع إذا كنت مهتمًّا بالنظر فيها" هكذا، لم يسخر منه هو أيضًا.

في أحد الطوابير الصباحيّة، قال المدير بنبرة صوتٍ كئيبة يحتفظ بها لإعلان أخبار الطّرد والهزائم الرياضيّة الكارثيّة، أنه يحمل خبرًا مُحزنًا: روبسون، من الصفّ السّادس العلميّ، توفي خلال عطلة نهاية الأسبوع. وبين طنين الغمغمات المتعجّبة، قال إن روبسون مات في زهرة شبابه، وأنّ فقدانه خسارة كبيرة للمدرسة، وأننا ينبغي أن نكون متواجدين في العزاء. قال كل شيء في الحقيقة، عدا ما أردنا أن نعرفه: متى وكيف؟ وإذا كان مقتولًا فمن القاتل؟

"إيروس وثانتوس" قال أدريان معلّقًا قبل بدء الحصة الأولى. "ثانتوس ينتصر ثانية"

ردّ عليه ألكس "لا ينطبق على روبسون بالضبط موضوع إيروس وثانتوس" فهززنا أنا وكولن رأسَينا موافقَين. إننا نعرف ذلك لأنه كان معنا في الفصل عامَين متتاليَيْن. كان صبيًّا هادئًا عديم الخيال، لا يحمل أيّ اهتمامات فنّيّة على الإطلاق، وقد تدحرج بعيدًا عن الحياة دون أن يؤذي أحدًا، وها هو الآن يوجّه لنا الإهانة جميعًا بصُنع اسمٍ لنفسه بهذا الموت المبكّر. زهرة الشباب، فعلًا: لكن روبسون الذي عرفناه لم يكن زهرة، كان نوعًا من الخضراوات.

لم يُذكَر أيّ مرض سببًا لوفاته، أو حادثة دراجة أو انفجارِ غاز.

بعد عدة أيام تسرّبت شائعة (ومصدرها معروف، براون من الصف السّادس رياضيّات) عمّا لم تستطع السّلطات فعله: فقد حملَت صديقة روبنسون منه، فشنق نفسه متدليًّا من السّقف، ولم يُعثر عليه مُدّة يومين.

"لم يرد إلى ذهني قط أنه يعرف كيف يشنق نفسه!"

"لا تنس أنه كان في الصف السّادس العلميّ"

"لكن الشّنق بحاجة لعُقدة من نوع معيّن"

"ذاك في الأفلام فقط، وعمليّات الإعدام الرسميّة. لكن في الحقيقة يمكنك استعمال أيّ حبل، كل ما سيحدث أنك ستختنق فترةً أطول قليلًا"

"كيف تتصور شكل صديقته؟"

تصوّرنا الخيارات التي نعرفها: عذراء مترمّتة (باتت الآن عذراء سابقة)، أو فتاة فاسقة من أحد المحلات، أو امرأة ناضجة ذات خبرة، أو عاهرة تحمل قدْرًا لا بأس به من الأمراض التناسليّة. بقينا نتحدث في ذلك حتى غيّر أدريان مجرى الحديث.

"قال كامو إن الانتحار هو السؤال الفلسفيّ الحقيقي الوحيد"

"بعيدًا عن الأخلاقيّات والسياسة وعلم الجمال وطبيعة الحقيقة وكل ذاك اللغو" جاء ردّ ألكس الحاد والفوري.

"...إنّه السؤال الوحيد الحقيقي، السؤال الأساسي الذي تعتمد عليه الأسئلة الأخرى كلّها"

بعد تحليل طويل لحادثة انتحار روبسون، استنتجنا أنّه من الممكن افتراض حدثٍ فلسفيٍّ منطقيّ: أنه، وهو بصدد أن يكون سببًا في زيادة تعداد البشريّة، قرر أن التزاماته الأخلاقيّة تحتّم عليه الحفاظ على تعداد سكان الكوكب ثابتًا. لكننا، من الجهات كافّة، حكمنا على روبسون –بعد تفكير جاد– أنّه قد خدعنا. كان تصرفه غير فلسفيّ، وحشيًّا ويفتقر لأيّ لمسةٍ فنيّة. بعبارة أخرى، كان تصرّفه خاطئًا. أمّا بشأن ورقة الانتحار التي أُشيع أنّه تركها خلفه (براون مرّة أخرى) التي تقول "آسف ماما" فقد رأينا أنّه أضاع فرصةً تعليميّة أثناء حياته لكتابة تلك الرّسالة بشكل أفضل.

ربما ما كنّا لنقسو على روبسون ما لم تكن هناك حقيقة مركزية وراسخة: أنّه في عمرنا نفسه، وأنّه –من وجه نظرنا– شخص غير مميّز، لكنّه نجحَ ليس فقط في العثور على صديقة، بل أيضًا مارس الجنس معها. اللعين! لماذا هو وليس نحن! لماذا لم يعش أيّ منّا أيّ تجربة –حتى لو كانت فاشلة– في العثور على صديقة؟ شعورٌ بالمهانة مثل ذاك، على الأقل، سيُضيف شيئًا لحِكمتنا، ويمنحنا ما نُباهي به حتى لو بشكلٍ سلبيّ. (في الحقيقة، إنّه "أحمق ذو بثور، وشخصيّة لا تختلف عن أي حذاء" هذه هي الكلمات التي قيلت لنا، بالضّبط) كنا نعرف من قِراءاتنا أن الحبّ ينطوي على العذاب، ولم تكن لدينا أيّ مشكلة في أن نحتمل شيئا من ذاك العذاب إذا كان يتضمّن وعدًا،

حتى ولو بشكل جدليّ، بأن "خُبًّا ما" في الطريق إلينا.
كان ذلك أحد مخاوفنا: أن تنتهي الحياة لتصير مثلما هي في الأدب. انظر إلى آبائنا: أليسوا مادّة خام صالحة للأدب؟ وهم يسعون ليكونوا بين المتفرّجين والمارّة، جزءًا من خلفيّة اجتماعية تحدُث على سطحها الأشياء المهمّة والحقيقيّة والصّادقة. مثل ماذا؟ مثل كل ما يدور حوله الأدب: الحب والجنس والأخلاق والصداقة والسعادة والمعاناة والخيانة والدعارة والخير والشر والأبطال والأشرار والندم والبراءة والطموح والسلطة والعدل والثورة والحرب والآباء والأبناء والأمهات والبنات والفرد ضد المجتمع والنجاح والفشل والجريمة والانتحار والموت والله. والبوم الأبيض. ثمّة هناك بالطبع نماذج للأدب النظريّ، أو المذكّرات، أو السّيرة الذاتيّة البكائيّة. لكن تلك الأشكال الكتابيّة ليست سوى استمناء لا يُخصب شيئًا. الأدب الفعلي هو ما كان عن الحقائق النفسيّة والعاطفيّة والاجتماعيّة كما تشير إليها أفعال –وردود أفعال– الشخصيّات الأدبيّة المكتوبة؛ الرواية هي تطوّر الشخصيّات عبر الزمن. هذا ما قاله لنا فيل ديكسون على أيّ حال، والشخص الوحيد –بخلاف روبسون– الذي احتوت حياته على ما يشبه الرواية، هو أدريان.
"لماذا تركَت أمّك أباك؟"
"لست متأكدا أني أعرف السبب"
"هل كان لديها عشيق؟"

"هل أبوك ديّوث؟"

"هل كان لوالدك عشيقة؟"

"لا أدري. قالوا لي أني سأفهم عندما أكبر"

"هذا ما يقولونه دائما. لماذا لا يشرحون كل شيء الآن! هذا ما سأقوله" باستثناء أنّي لم أقل ذلك أبدًا، فبيتنا، حسب ما يمكنني أن أُخبر به، لم يكن يحوي أيّ أسرار، ولا ما يجلب العار أو الإحباط.

"ربما كانت أمك واقعة في هوى شابٌ أصغر منها؟"

"كيف يمكن لي أن أعرف؟ نحن لم نلتق قط في البيت، فهي دائمة الحضور في لندن."

ذاك وضعٌ ميؤوس منه. لو كنّا في رواية، لم يكن أدريان ليقبل بالأمور على علّاتها. ما معنى أن تكون حياتك مفعمة بالعناصر الروائيّة ما لم يكن البطل يتصرّف كما يتصرّف أبطال الروايات؟ كان لا بد لأدريان أن يتجسّس عليها، أو يوفّر من مصروفه ويستأجر مُخبرًا سريًّا؛ ربما كان علينا نحن الأربعة أن نتحرك معه سعيًا للبحث عن الحقيقة. أو ربما يكون كل ذلك أبعد عن الأدب، في الحقيقة، وأقرب إلى مغامرات الأطفال.

أثناء آخر حصّة تاريخ لنا في ذلك العام، دعانا جو هنت الأب، الذي تصفَّحَت عَيناهُ الكليلتّان التيودورات (Tudors) والاستيوراتات (Stuarts) والفيكتوريين (Victorians) والإدوارديين (Edwardians)

ومبدأ "صعود الإمبراطوريّات" ثم "اضمحلالها"، إلى تأمّل القرون الماضية كلّها ومحاولة استخلاص بعض النتائج.

"يمكننا البدء، مثلا، بسؤال يبدو بسيطًا: ما هو التاريخ؟ هل من إجابة، وبستر؟"

"التاريخ أكاذيب المنتصرين" أجبت بسرعة.

"حسنا. كنت أخشى أن تقول ذلك، ربما تتذكر كذلك أنه أوهام المهزومين أيضًا. سمبسون؟"

كولن كان أكثر استعدادًا منّي. "التاريخ فطيرةُ بَصَلٍ غير مطبوخ، أستاذي"

"لماذا؟"

"لأنّه مكرّر، أستاذي. مُثير للتجشّؤ. لقد رأيناه مرّة تلو الأخرى أثناء دراستنا هذا العام مثل طبقات البصل. الحكاية القديمة نفسها، التأرجح بين الخيانة والثورة نفسه، الحرب والسلام، الثروة والفقر...الخ"

"هذا يرجّح أنه فَطيرة بصل ضخمة، أليس كذلك؟"

ضحكنا أكثر ممّا ينبغي، وانقلب الحال لما يشبه الهستيريا الجماعية.

"فِن؟"

"التاريخ هو ذاك اليقين الناتج عن التقاء خلل الذّاكرة بنقص التوثيق"

"فعلا؟ أين قرأت ذلك؟"

"لاغرانج (Lagrange)، أستاذي. باتريك لاغرانج، إنه فرنسي"

"مفهوم طبعا. حسنا، هل يمكنك أن تعطينا مثالا على ذلك؟"

"انتحار روبسون، أستاذي"

مرَت همهمة مسموعة، وجازف البعض بإدارة رؤوسهم نحو أدريان، غير أنّ هنت، مثل باقي المدرسين، كان يمحضه مكانة خاصة. عندما كان أحدنا يحاول التمرّد كانت تتم معاملته باعتبار أنّه أقدم على تصرّفٍ صبيانيّ (وهذا أمر آخر ضمن قائمة الأمور التي سنكبر ونتجاوزها) بينما كان يتمّ التعاطي مع تمرّد أدريان على أنّه سعيٌ متطرّف للبحث عن الحقيقة.

"ما علاقة هذا بذاك؟"

"إنه حدَث تاريخي، أستاذي، حتى لو كان بسيطًا، غير أنه جديد. إذن، لابدّ أن نتعامل معه كتاريخ. نحن نعرف أنه مات، نحن نعرف أنه كانت لديه صديقة، نحن نعرف أنها حامل، أو كانت كذلك. ماذا لدينا أيضًا؟ نموذج لوثيقة واحدة، رسالة انتحار مكتوب فيها "آسف، ماما"، على الأقل وِفقًا لشائعة براون. هل ما تزال هذه الرسالة موجودة؟ هل تمّ التخلّص منها؟ هل كان لدى روبسون أيّ دوافع أخرى أو أسباب خلف تلك الدوافع الواضحة؟ ماذا كان يدور في رأسه؟ هل يمكننا أن نتأكد أنّ الجنين هو جنينه؟ لا يمكننا يا سيدي، رغم أنه لا يفصلنا عن الحادثة غير وقت قصير. فكيف سيكون الأمر حين يكتب شخص ما قصّة روبسون بعد خمسين

عامًا، عندما يكون والداه قد رحلا، وفتاته اختفت، ولا تُريد أن تتذكّره من جديد؟ هل ترى حجم المشكلة، أستاذي؟"

نظرنا جميعا إلى هنت، متسائلين ما إذا كان أدريان قد اندفع بعيدا هذه المرة. تلك الكلمة وحدها "حامل" كانت تبدو كأنها تحوم مثل غبار الطباشير، والاقتراح الجريء للأبوّة البديلة لروبسون، التلميذ المنحلّ...

بعد فترة صمت قال المدرّس "أتفهم المشكلة، فِن. لكني أظن أنك تبخس قَدْر التاريخ، وبالتالي قَدْر المؤرخين. دعنا نفترض جدلا أن روبسون المسكين سيصير محلّ اهتمام تاريخي. دائما ما واجه المؤرخّون مشكلة نقص الأدلة المباشرة. هذا ما اعتادوا عليه. لا تنس كذلك أنّ القضيّة الحديثة ربما تتضمّن تحقيقًا قضائيًا وبالتالي تقريرًا من طبيب شرعي. ربما كان روبسون يدوّن مذكراته، أو يحتفظ بخطاباتٍ ما مكتوبة، أو قام بإجراء اتصالات هاتفية ما زال استدعاء تسجيلاتها ممكنًا. ربما يكون والداه قد أجابا على خطابات التعزية التي تلقياها شارحينَ ما حدث. وبعد خمسين عامًا من الآن، بحسب الأعمار المتوقعة حاليًا، سيكون بعض من زملاء مدرسته متاحين لإجراء حوارات معهم. ستكون المهمة أقل صعوبة ممّا تتصوّر"

"لكن لا شيء سيعوّض غياب شهادة روبسون نفسه، أستاذي"

"هذا صحيح من جانب واحد، لكن بالقدْر نفسه، يحتاج المؤرخون

لمعالجة تفسيرات المشاركين في الأحداث بنوعٍ من الشّك أيضًا. إنه الموقف الذي تتبناه عينٌ تنظر نحو المستقبل، هو أكثر ما يستحق الشك"

"إذا كنت ترى ذلك، أستاذي" ﻫ

"وغالبا ما يمكن الاستدلال من الأفعال على الحالة العقلية. نادرا ما يرسل الطاغية ملاحظة بخط اليد يطلب فيها التخلص من العدو"

" إذا كنت ترى ذلك، أستاذي"

"حسنا"

هل كان ذاك هو الحوار الذي دار بينهما؟ ليس تمامًا، إنه أقصى ما أتذكّره من الحوار الذي دار بينهما.

أنهينا مرحلة المدرسة، وتعاهدنا على صداقة بطول العمر، ومضى كل منّا إلى طريقه. فاز أدريان، دون أن يثير ذلك دهشة أحد، بمنحة دراسية في جامعة كامبردج. أنا درست التاريخ في جامعة بريستول بينما كولن ذهب إلى جامعة ساسكس، فيما عمل ألكس في تجارة والده. كنا نكتب الرسائل بعضنا إلى بعض، كما كان يفعل الناس –لا سيّما الشّباب– في ذلك الوقت. لكن لم تكن لدينا خبرة كافية بفنّ كتابة الرّسائل أدبيًّا، لذا كانت عنايتنا بالأسلوب تسبق إلحاح الاهتمام بالمحتوى. أن تبدأ الرّسالة، مثلًا، بأن تكتب "ردًّا على رسالتك المبعوثة في اليوم السابع عشر من الشّهر الحاليّ..."

بدا وقتها لطيفًا جدًّا.

تعاهدنا أن نلتقي جميعًا حين يعود الطلّاب الثلاثة بيننا إلى بيوتهم خلال الإجازة الجامعيّة. لم ننجح في الالتزام بذلك دائمًا. كانت الرسائل المتبادلة بيننا فيما يبدو هي معيار ديناميكيّة علاقتنا. كنّا نحن الثلاثة الأصليّين نكتب بعضنا لبعض بمعدّل -وحماسة- أقل ممّا نفعل مع أدريان. أردنا جذبَ انتباهه، والحصول على تقديره. كنّا نتودّد إليه ونروي له أوّلًا أفضل ما لدينا من حكايات. كان كل منا يظن أنه يستحق أن يكون الأقرب منه. وبينما كنّا نكوّن صداقات جديدة كنّا مقتنعين لسبب ما أن أدريان لم يكن يفعل ذلك: أن علاقتنا كانت ما تزال على حميميّتها، وأنه ما يزال يعتمد علينا. هل كان ذلك لإخفاء حقيقة أننا كنّا نعتمد عليه؟

ثم جرفتنا الحياة، وتسارع الوقت. بعبارة أخرى، اتّخذتُ صديقة. كنت بالطبع قد دخلتُ في عدة علاقات قبلها مع أكثر من فتاة. غير أنّ كلّ فتاة منهن كانت إمّا واثقة من نفسها فأشعر أني أخرق، أو عصبيّة إلى درجةٍ تفوق عصبيّتي. كانت هناك، بشكل واضح، شفرة ذكوريّة يتسلّمها المتردّدون في الثامنة عشرة من ذوي اللباقة في العشرين، والتي بمجرد أن تجيدها، ستمكّنك من "التقاط" الفتيات، وفي حالات خاصة، من "الحصول عليهن". لكني أبدا، لم أتعلمها أو أفهمها، ولعلّي حتى الآن ما أزال غير واعٍ بها. كان التكنيك الذي أستخدمُه هو ألّا يكون هناك أيّ تكنيك. كان

الآخرون يعتبرون ذلك، ولعلّ لهم بعض الحق، جُبنًا أو فشلًا. حتى ما يُفترض أنها طُرُق معروفة، مثل الدّعوة للشّرب، أو المراقصة، أو الغزل، أو توصيلها إلى لبيت، أو "هل تشربين معي القهوة؟" تتضمّن إجادة شكلٍ من الاقتحام لم أكن أتقنه. كنت أتسكع هنا وهناك، مُطلقًا تعليقات طريفة وفي الوقت نفسه متوقّعًا أني سأفسد كل شيء. ما أزال أذكر شعوري بالحزن أثناء إحدى الحفلات في الفصل الدراسي الأول، حين سألتني إحدى الفتيات بتعاطف ما إذا كنتُ على ما يرام؟ فوجدت نفسي أجيبها "أظنّ أنّي مصاب بهوس اكتئابيّ" لأني وقتها ظننت أنّه جوابٌ أكثر جاذبية من "أظنّ أنّي حزين قليلًا." لكنّها حين ردّت "بالتأكيد" وتحرّكت مبتعدة برشاقة، أدركتُ أنّي بدلًا من أن أتوسّط معها المجموعة الرّاقصة هناك، جرّبت أسوأ عبارة ممكنة لالتقاط فتاة.

صديقتي كان اسمها فيرونيكا ماري إليزابيث فورد، تلك المعلومات (أعني اسمها الكامل) استغرقت مني شهرين لمعرفتها. كانت تُجيد الإسبانيّة، وتُحبّ الشّعر، وكان والدها موظّفًا حكوميًا. طولها حوالي مائة وستين سنتيمترا، ولها ساقان مدملكتان وشعر كستنائي يصلّ ينتهي إلى كتفيها، وعينان خضراوان خلف نظّارات ذات إطار أزرق، وابتسامة سرعان ما تأسرك. فكّرت أنها لطيفة. حسنًا، كانت أيّ فتاة لا تفرّ مني في تلك الأيام هي فتاة لطيفة. لم أجرب أن أقول لها أني حزين، لأنّي لم أكن حزينًا. كان لديها مُشَغِّل

أسطوانات موسيقيّة من نوع بلاك بوكس، بينما امتلكت واحدًا من نوع دانسيت، لكن كان ذوقها الموسيقيّ أفضل مني. كرهَت دفوراك (Dvořák) وتشايكوفسكي الذَين أعشقهما. كانت تمتلك تسجيلات مطوّلة لمعزوفات بيانو وكورال. نظرت إلى مجموعتي بابتسامة عرَضية متردّدة وحاجبين مقطّبين. لم تنقذني حقيقة أنّي خبّأت افتتاحيّة لتشايكوفسكي وموسيقى فيلم رجل وامرأة *(Un home et femme)*. كانت هناك بعض الأسطوانات المُثيرة للشك قبل أن تصل إلى قسم موسيقى البوب: إلفس بريسلي والبيتلز وستونز (لا يمكن لأحد أن يعترض على ذلك بالتأكيد) لكن كان هناك أيضا فِرَق هوليز، وأنيملز، ومودي بلوز، وأسطوانتان للمطرب الأسكتلندي دونوفان في إصدار خاص معًا تحت عنوان: هدية من الزّهرة للحديقة.

"هل تحب هذه المجموعة فعلا؟" سألت بحياد.

أجبت فيما يشبه الدفاع "إنها جيدة للرقص"

"هل ترقص على هذه الموسيقى؟ هنا؟ في غرفتك؟ مع نفسك؟"

"لا، ليس بالضبط" رغم أني كنت أفعل ذلك بالطبع.

"أنا لا أرقص" قالت، جزء من عبارتها بدا مثل معلومة خبريّة، وجزء آخر كان يضع قاعدة لما يمكن أن ينشأ بيننا من علاقة، لقد كنّا على وشك الخروج معا.

يَحسُن بي أن أشرح ما كان يعنيه "الخروج معًا" وقتها؛ لأن الزّمن

تغيّر، فقد كنت أتحدّث مؤخّرًا مع إحدى الصديقات التي حكت لي عن ابنتها التي عادت لها ذات يوم في حال من التعاسة. كانت في فصلها الدراسي الثاني في الجامعة وكانت تنام مع شاب كان بدوره -بشكل مكشوف وبعلمها- ينام مع عدّة فتيات في الوقت نفسه. كل ما كان يفعله هو الاقتراع بينهن لمعرفة من التي "سيخرج معها". كانت الفتاة غاضبة، لكن ليس بسبب ذاك النّظام في الخروج -رغم إدراكها لما ينطوي عليه من ظُلم- بل بسبب أنه لم يتم اختيارها في النهاية.

جعلني ذلك أشعر أنّي هارب من ثقافة عتيقة تم تجاوزها، بينما ما يزال أعضاؤها يستعملون نظام المقايضة بالسّلَع. عودةً "لأيامي" - رغم أني لم أزعم امتلاكي لها وقتها- كان هذا ما يحدث: تلتقي بفتاةٍ وتنجذب إليها وتحاول أن تصل إليها ببراعة، ربما تدعوها، في المرّة الأولى والثانية، إلى الخروج لمكان عام -الحانة على سبيل المثال- ثم تطلب منها الخروج بمفردكما. ثم، بعد قُبلة وداع تختلف حرارتها من وداعٍ لآخر، تصيران بشكلٍ ما "تخرجان معًا" رسميًّا. لن تكتشف سياستها الجنسيّة إلا عندما تكونان مرتبطين بشكل شبه رسميّ، وأحيانا ما يعني ذلك أن جسدها يمكن أن يكون منطقة محرّمة مثل تلك المصائد السمكيّة المحجوزة. لم تكن فيرونيكا مختلفة عن باقي الفتيات وقتها. كُنّ يتعاملن -جسديًّا- بتسامح معك، تأخذ ذراعك وسط الناس، تقبّلك حتى يحمرّ وجهك، وربما

تضغط -واعيةً- بثديها على صدرك طالما هناك خمس طبقات من الملابس تفصل بينكما. ستكون مدركة لما يجري أسفل بنطالك دون أن تشير إليه، وسيكون هذا كل شيء، ولفترةٍ ليست بسيطة. بعض الفتيات كن يسمحن بما هو أكثر: تسمع عن الذين ذهبوا للاستمناء المتبادل، وأخريات سمحن "بجنس كامل" كما كان يعرف وقتها. لن تجرب هذا "الجنس الكامل" حتى تمرّ بكثير من "الجنس المنقوص" وبعد ذلك، ومع استمرار العلاقة، هناك كثير من الفِصام المُضمَر، بعضها مبنيّ على النزوات وبعضها على الوعود والارتباط، ما يُطلِق عليه الشعراء "مشاكسات خاتم الزواج".

ستفسّر الأجيال التالية كل ذلك بالتديُّن أو العفّة. غير أن البنات -أو السيّدات- اللواتي مارستُ معهنّ الجنس الآثم (نعم، ليست فيرونيكا فحسب) كنّ متسامحات مع أجسادهن. وفي ظل المعلومات المتاحة بالنسبة لي، لا أعني أن اقول إن ما الجنس الآثم كان غير مثير، أو بشكل أوضح محبطًا، بل أعني أن تلك الفتيات سمحن بأكثر ممّا سمحت به أمّهاتهن، وأنا حصلت على أكثر ممّا حصل عليه والدي. أو هذا ما افترضته. وفي النهاية، أي شيء أفضل من لا شيء. باستثناء أن كولن وألكس استطاعا ترتيب أمورهما مع صديقتين ليس لديهما سياسات جنسيّة أو مناطق محرّمة، أو أن هذا ما ألمحا إليه. وفي النهاية، لم يُخبر أحدنا الآخر بالحقيقة كاملة حول تجربته الجنسيّة. وهكذا، من هذه الناحية، أظنّ أنه

لم يتغيّر شيء حتى الآن.

لا أستطيع أن اقول إني كنتُ "بِكْرًا"، إذا كان هذا السؤال هو ما خطر لك. فمن مرحلة المدرسة إلى مرحلة الجامعة مررتُ بتجارُب كانت إثارتها تفوق ما تركَتْه فيّ من علامات. لذا، فإنّ ما رأيته يحدث بعد ذلك أشعرني بمزيد من الغُربة: كلّما أحببتَ الفتاة أكثر وتوافقتما بشكلٍ أو بآخر، كلّما قلّت الفرصة في ممارسة الجنس معها، على ما يبدو. إلا إذا -وهذه الفكرة لم تخطر على بالي إلّا لاحقًا- أنّي كنت أنجذب للنساء اللاتي يقُلنَ لا، لكن هل يوجد انحراف في الغريزة من هذا النوع؟

"لم لا؟" ستجد نفسك تسأل، بينما يدها قابضةٌ تشد بحزم على رسغك.

"لا أشعر أنه ينبغي علينا أن نفعل ذلك"

ذاك الحوار المتبادل كان يُسمع دائرًا أمام حرارة مدفأة غازيّة، قطعته مرارًا صفير غلّاية. لم يكن يدور كثير من الجدل حول "المشاعر" لأن النساء خبيرات فيها، بينما الرجال مجرّد مبتدئين فيها. لذا كانت جُملة من قَبيل "لا أشعر أنّ ما تريد فعله أمر صائب" أكثر إقناعا وتماسكا من موعظة كنيسة أو نصيحة أم. ربما تسأل، لكن كيف، ألم تكن تلك حقبة الستينيّات؟ أقول أجل، لكنها كانت كذلك بالنسبة لأشخاص معيّنين، وفي بِقاعٍ معيّنة من البلاد.

استحقّت رفوف مكتبتي إعجاب فيرونيكا أكثر من أسطواناتي

الموسيقية. وقتها، كانت الكتب ذات الغلاف الورقيّ قد بدأت تظهر في طبعاتها الشعبيّة: كتب دار بينغوين (Penguin) البرتقالية للروايات، وكتب دار بليكان (Pelican) الزرقاء غير الروائية. أن يتغلب الأزرق على البرتقالي في مكتبتك كان دليلًا على الجديّة. وفضلا عن ذلك كان لدي ما يكفي من العناوين السّليمة: ريتشارد هوغارت (Richard Hoggart)، وستيفن رونسمان (Steven Runciman)، وهويزينغا (Huizinga)، وإيزنك (Eysenck)، وإيمبسون (Empson)... بل وأضف إلى ذلك كتاب القسّ جون روبنسون (John Robinson) الإخلاص لله (Honest to God) جوار كتب لاري (Larry) الكارتونيّة. محضتني فيرونيكا بمديح يفتَرض أنّي قرأت تلك العناوين كلّها، فلم يساورها الشك أن أغلب الكتب المهترئة هي كتب اشتريتُها مستعملة.

رفوف مكتبتها تحمل كثيرًا من كتب الشعر، في شكل مجلدات أو كتب نحيلة: إليوت (Eliot)، وأودن (Auden)، وماكنيس (MacNeice)، وستيف سميث (Stevie Smith)، وتوم عن (Thom Gunn)، وتيد هيوز (Ted Hughes). ثمّة مطبوعات نادي ليفت للكتب (Left Book Club) بينهما روايات أورويل (Orwell) وكوسلر (Koestler)، وبعض الروايات السميكة من القرن التاسع عشر، وكتابان للأطفال لآرثر راكامز (Arthur Rackhams) ثم كتابها المفضل أتمسك بالقلعة (I Capture the Castle). لم

يساورني أي شك أنها قرأتهم جميعًا وأنها كانت كتبها الخاصة، بل وبدت امتدادا لذهنها وشخصيتها، بينما كانت كتبي تبدو منفصلة عني، تُجاهد لوصف شخصيّة أحاول أن أكونها. أصابني هذا التفاوت بشيء من الارتباك، واستعذتُ وأنا أنظر في كتبها الشعرية عبارة فيل ديكسون: " بالطبع، لابدّ أن نفكّر جميعًا في ما سيحدث لو نفد كلّ ما لديه من حيوانات!"

"فعلا؟"

"هكذا قيل لنا" قلت متضعضعا. على لسان ديكسون كانت العبارة ذكية ولامعة، لكني حين قلتها بدت مجرّد طُرفة باهتة.

"لا تنتهي المادة التي يستخدمها الشعراء كما يحدث للروائيّين، لأنهم يعتمدون على تلك المادّة بطريقة مختلفة، كما أنك تعامل هيوز وكأنه عالِم حيوانات، أليس كذلك؟ لكن حتى عالم الحيوانات لا يسأم من حيواناته، أليس كذلك؟"

كانت تنظر إليّ بينما ترفع أحد حاجبيها. إنها تكبرني بخمسة أشهر، وكنت أشعر أحيانًا أنها خمس سنوات.

"لقد كانت مجرّد عبارة قالها أستاذ اللغة الإنجليزية"

"نعم، لكننا الآن في الجامعة وعلينا أن نتعلّم التفكير باستقلال، أليس كذلك؟"

كان هناك شيء في ضمير الجمع (نا) جعلني أشك في كوني أخطأت الفهم. كانت تحاول تحسين مستواي فحسب (ومن أكون أنا

لأعترض على ذلك؟) أحد الأشياء التي سألتني عنها في البداية هو عن سبب ارتدائي السّاعة ناحية باطن الرسغ. لم أستطع تبرير ذلك، فقمت بقلب الساعة، بات وجهها للخارج، كما يفعل الكبار عادة.

انتظمتُ في نمطٍ رتيب يتمثّل في العمل، وقضاء وقت فراغي مع فيرونيكا، والاستمناء في غرفتي متخيلا إياها فوقي أو تحتي. كانت العلاقة اليومية الحميمية جعلتني فخورًا بمعرفة الماكياج، وطريقة ارتداء الملابس اللائقة، والتّنعيم النسائيّ، والآثار الغامضة للدورة الشهرية. وجدت نفسي معجبا بذلك المنبه المنتظم المشترك والخاص بين جميع الإناث، والمتصل بدورة كبرى مرتبطة بالطبيعة. ربما أكون قد قلت هذا الكلام بهذه الطريقة الرديئة عندما حاولت وصف شعوري وقتها.

"إنك تنظر برومانسية فحسب لما ليس لديك، فالأمر لا يهدف سوى إلى إثبات أنّ المرأة ليست حاملًا"

لكوننا مرتبطين، رأيت في هذا التعليق نوعا من الصفاقة.

"حسنا، أتمنى ألّا نكون مُقيمين في النّاصرة!"

تلا ذلك فترة صمت، تلك التي يتفق فيها الفتى والفتاة تكتيكيًا أن يسكتوا خلالها عن موضوع ما. ثم ما الذي كان هناك لنناقشه؟ ربما لا شيء سوى البنود غير المكتوبة للرّبح والخسارة. من وجهة نظري، كانت حقيقة أننا لا نمارس الجنس تحرّرني من التورّط تمامًا معها، وهي بدورها لن تسألني إلى أين تمضي علاقتنا، أو على

الأقل، هذا ما ظننته. لكني كنت، وما زلت، مُخطئًا بصدد كثير من الأمور. مثلًا، لماذا افترضتُ أنها عذراء؟ فأنا لم أسالها قط، وهي لم تخبرني. هل افترضت ذلك لأنها لم تنم معي؟ أيّ منطق هذا؟

ثم دعتني مرّة للتعرّف على أسرتها في إحدى نهايات الأسبوع أثناء الإجازة. كانوا يعيشون في كينت، جهة أوربنغتون، في إحدى تلك الضواحي التي توقّفوا فيها عن مزاحمة الطبيعة بالأبنية الإسمنتيّة في آخر لحظة، ولذا يتم الإعلان طوال الوقت وبصلافة أنّها ضاحية ريفيّة. في القطار، قادما من تشيرنغ كروس، كنت قلقا من أن تكون حقيبتي، التي ليس لدي غيرها، كبيرة فتجعلني أبدو مثل لصّ مُحتمَل. في المحطة، قدّمتني فيرونيكا لوالدها، الذي فتح حقيبة السيارة، وتناول حقيبتي ضاحكًا: "يبدو أنك تنوي الانتقال للعيش معنا، أيّها الشاب الصّغيرا"

كان ضخمًا، هائل الحجم وأحمر الوجه، واحتضنني بشدّة. هل كانت تفوح من أنفاسه رائحة البيرة؟ في هذا الوقت من النهار؟ كيف أمكن لهذا الأب أن يُنجب تلك الابنة الضئيلة؟

قاد سيارته الهمبر-سوبر-سنايب بتأفّف واضح من حماقة الآخرين. جلست في المقعد الخلفي، وحيدا. كان كثيرا ما يشير إلى أشياء، مفترضا أنّه يحادثني رغم أني لم أكن أعرف ما إذا كان عليّ أن أجيب أم لا: "تلك كنيسة القدّيس مايكل، نجح المُرمّمون

في استعادة الطوب والصوان بطرازهما الفيكتوري" و"ذاك مقهى رويال الخاصّ بنا، ها هو ذا!" و"انظر إلى هذه المنازل الخشبية المبنيّة دون ترخيص على يمينك" نظرتُ إلى فيرونيكا مُنتظرًا أيّ إشارة، لكني لم أتلق شيئا.

كانوا يعيشون في منزل مستقلّ بطوب أحمر وأسقف معلّقة بشريط من الحصى أمامه. فتح السيّد فورد الباب الأمامي وصاح دون أن يكون خطابه موجها لشخص معين: "لقد جاء الصبيّ ليمكُث معنا شهرًا!"

لاحظتُ اللمعة الثقيلة للأثاث الداكن، واللمعة الثقيلة لأوراق النباتات الكثيفة في المزهريّات. أخذ والد فيرونيكا حقيبتي كأنه يستجيب لقواعد الضيافة الباردة، مُبالغًا بسُخرية هازلة من وزنها. تبعتُه وهو يحملها إلى الغرفة في الدور العلويّ، ثمّ ألقاها على السرير. أشار لحوض صغير قائلا: "تبوّل هنا ليلًا لو أردت ذلك" أومأتُ برأسي. لم أعرف ما إذا كان ذلك تصرّفًا ذكوريًا، أم أنه يعاملني كواحد من حُثالة المجتمع.

كانت شخصيّة جاك، أخا فيرونيكا، سهلة القراءة: هو واحد من أولئك الرياضيّين وافِري الصحّة الذين يضحكون على كل شيء ويستمتعون بإغاظة أخواتهم الصغيرات. تصرف معي وكأني مادة مثيرة للفضول وأول من يستحق أن يظهر له تقديره. تجاهلَت والدة

فيرونيكا كل ذاك العرض السّخيف الذي يدور حولها، وسألتني عن دراستي، ثم اختفت في المطبخ طويلًا. أفترض الآن أنها كانت في أوائل الأربعينيّات من عمرها رغم أنها بدت وقتها طاعنة السّنّ، هي وزوجها. لم تكن تشبه فيرونيكا كثيرًا: وجهها أطول، وشعرها مربوط أعلى جبهتها بشريط، وقامتها أطول قليلا من المتوسّط المعتاد للطّول. كانت تبعث في المكان جوًّا فنيًّا ما، رغم أنه لا يمكنني الآن بدقة تحديد مصدر ذلك: هل هو الوشاح الملوّن، أو السّلوك الشارد، أو الهمهمة بموسيقى أوبراليّة، أو ربما كل ذلك معًا.

لشدّة اضطرابي وقلقي، قضيتُ عُطلة نهاية الأسبوع بكاملها دون الخروج من بيتهم أعاني من الإمساك: هذه هي الذكرى الأساسيّة والحقيقية. أما الذكريات الباقية فتتكوّن من انطباعات ونصف ذكريات ربما -لكونها كذلك- لن تساعدنا كثيرا. على سبيل المثال: كيف أن فيرونيكا، رغم أنها دعتني إلى منزلها، بدَت مُنصرِفة إلى أسرتها تشاركهم في اختباري. وسواء كان ذلك سببا لقلقي أو نتيجة له، فأنا لا أستطيع أن أحّدد الأمر بعد كل تلك السنين الآن. على العشاء، في يوم الجُمعة ذاك، كان هناك بعض الأسئلة عن "أوراق اعتمادي" الاجتماعية والثقافية: شعرت أني أمام محكمة تحقيق. بعد ذلك، شاهدنا الأخبار على التلفزيون ثم تناقشنا بارتباك حول الشؤون العالميّة حتى ميعاد النوم. لو كنّا في رواية لكان هناك بعض التسلّل بين الأدوار بعد ذهاب الأُسرة للنوم للحصول على عناق

دافئ. لكننا لم نكن في رواية، لم تقبّلني فيرونيكا حتى قُبلة قبل النوم ذلك المساء، ولم تتذرعَ متأسّفةً لعدم تغيير الملاءات فتدخل الغرفة بحجّة تفقّد ما إذا كنتُ بحاجة إلى شيء ما. لعلها كانت خائفة من سخرية أخيها. وهكذا، خلعتُ ملابسي، واغتسلت، وتبوّلت بعنف في الحوض، ثم ارتديت بيجامتي ورقدت مستيقظًا وقتًا طويلًا.

عندما نزلتُ لتناول الإفطار، كانت السيدة فورد وحدها هناك. الباقون ذهبوا للتنزّه بعد أن أكّدت فيرونيكا لهم أنّي أريد الاستيقاظ متأخّرًا. لم يكن بإمكاني إخفاء ردّة فعلي على ذلك جيّدا، حيث كان بوسعي الإحساس بالسيدة فورد وهي تتفحّصني أثناء إعدادها للخبز المحمّص والبيض. كانت تقلي الطعام بسرعة وكيفما اتّفق وتكسر إحدى البيضات. لم أكن خبيرا في محادثة أمّهات صديقاتي. أسأل في النهاية، رغم معرفتي بالإجابة مسبقًا: "هل عشتِ هنا فترة طويلة؟"

توقّفت. صبّت لنفسها شايًا، وكسرت بيضة أخرى في المقلاة، ثم عادت بظهرها مستندة لخزانة ممتلئة بالأطباق وقالت: "لا تدع فيرونيكا تنجو بالكثير!"

لم أعرف كيف أرد، هل ينبغي أن أشعر بالإهانة لهذا التدخّل في علاقتنا، أم أستسلم للمزاج الاعترافيّ و"أناقش" أمر فيرونيكا؟ لذا قلتُ بحذر: "ماذا تقصدين، سيّدة فورد؟"

نظرت نحوي. ابتسمت بجفاء، ثمّ هزّت رأسها على مهل وقالت

"أعيشُ هنا منذ عشر سنوات."

وهكذا في النهاية وجدت نفسي تائهًا في عَرَض البحر معها مثلما كنتُ مع سابقاتها، رغم أنها بدت وكأنها تحبّني على الأقل. دفعت بيضة أخرى نحو طبقي، رغم أني لم أطلب مزيدًا ولم أرغب في ذلك. كانت بقايا البيضة المكسورة ما تزال في المقلاة؛ فرمَت كل شيء في سلة القمامة، ثم ألقت المقلاة الساخنة في الحوض المبلّل. طشّ الماء وتصاعد البخار مع ارتطام المقلاة به، فضحكت وكأنها مستمتعة بإثارة ذاك الدّمار الصّغير.

حين عات فيرونيكا مع رجالها، كنت أتوقع مزيدًا من الاختبارات، ربما بعض الحيل أو الألاعيب؛ بدلا من ذلك ألقوا عليّ أسئلة مهذّبة حول نومي وهل كان مُريحًا. كان من المفترض أن يجعلني ذلك أشعر بقبولهم لي، لكنه بدا وكأنهم ضجروا مني وأن عطلة نهاية الأسبوع تحوّلت إلى حالة أريدها أن تنتهي سريعًا. ربما كان ذلك مجرّد شكٍّ مبالغ فيه. لكن من الناحية الإيجابية، بدت فيرونيكا أكثر تعاطفا؛ ونحن نتناول الشاي كانت سعيدة بوضع يدها حول ذراعي وتحريك أصابعها في شعري. ووسط الكلام استدارت لأخيها قائلة "إنّه صالح، أليس كذلك؟"

غمز لي جاك لكني لم أغمز له. بدلا من ذلك شعرت أنّي ضُبطت بسرقة بعض المناشف، أو تلويث السجادة بالطين.

ما يزال وقتها كل شيء طبيعيا. ذلك المساء، صعدت فيرونيكا معي

الدّرج، وقبّلتني قُبَل النّوم بحياديّة. احتوى غداء الأحد على لحم الضّأن المشويّ الذي غُرِسَت فيه سيقانٌ كثير من نبتة إكليل الجبل فبدا اللحم مثل شجرة الكريسماس. وحيث أن والداي كانا قد علّماني السّلوك المهذّب، فقد قلت إن الطعام كان لذيذًا. ثم انتبهت لجاك وهو يغمز والدَه كأنّه يقول له: يا له من مغفل! غير أن السيّد فورد قال متهلّلًا "اسمعوا، اسمعوا. هذا مُعجب آخر بالطعام" فيما شكرتني السيدة فورد.

عندما نزلت الدّرج لأودّعهم، اختطف السيد فورد حقيبتي قائلا لزوجته "أنا واثق أنّكِ عدَدْتِ الملاعق يا عزيزتي؟" لم تكلّف نفسها عناء الإجابة، ابتسمت لي فحسب وكأننا نتشاركُ سِرًّا ما. لم يظهر الأخ جاك ليسلّم عليّ؛ جلست فيرونيكا ووالدها في مقعد السيارة الأمامي، جلستُ في الخلف ثانية. كانت السيدة فورد مائلة على الشرفة، وضوء الشمس يسقط على الستائر المعلقة وراءها. جعل السيّد فورد العربة في وضع الاستعداد، وعندما همّ بالانطلاق، لوّحتُ لها بيدي، فلوّحَت لي، ليس كما يفعل الناس عادة بكفّ مرفوعة، بل بإشارة حرّكَتها أفقيًا. تمنّيت لو أنّي تحدّثت معها أكثر. وكي أمنع السيّد فورد من الكلام عن عجائب تشيزلهيرست مرة ثانية، قلت لفيرونيكا "أنا أحب والدتك" فقال فورد بنبرة مسرحية "يبدو أنّه صار لديكَ منافس يا فرون!" ثم أضاف "فكّر في الأمر، يبدو أنك تنافسني أنا أيضًا. لنتبارز إذًا أيّها الفتى!"

وصل قطاري، كالعادة، متأخّرًا بعد أعمالِ صيانةِ يوم الأحد. وصلت البيت باكرا في المساء. أتذكر أن الرحلة كانت طويلة وملعونة بامتياز.

بعد أسبوع تقريبا، جاءت فيرونيكا إلى المدينة فصار بوسعي تقديمها لأعضاء "العصابة،" مجموعة المدرسة القديمة. كان يوما دون هدف لم يشأ أحدنا أن يسيطر عليه. ذهبنا للتجول في نيت، ثم تمشينا حتى قصر باكنغام، ثم عبرنا الهايد بارك متجهين إلى رُكن الخطباء، لم يكن أحد يخطب هناك، فواصلنا المشي حتى شارع أكسفورد نحدّق في المحلّات التجاريّة، وانتهينا إلى ميدان ترافلجار بين الأُسُود. لو رآنا أحد لظنّنا سوّاح.
في البداية كنت أراقب كيف يتصرف أصدقائي مع فيرونيكا، لكني سرعان ما صرت أكثر اهتمامًا في رأيها عنهم. كانت تضحك لدعابات كولن أكثر ممّا تفعل لدعاباتي، ضايقني ذلك، وسألَت ألكس كيف صنع والده ثروته؟ (أجابها "التأمين البحريّ" وهو ما أثار دهشتي) بدت سعيدة بأن تُبقي أسئلتها لأدريان حتى تنتهي من البقيّة. كنت قد قلت لها أنه في يدرس في جامعة كامبردج، فقالت له عدة أسماء ممّن تعرفهم هناك. عند اسمين من هذه الأسماء هزّ أدريان رأسه قائلًا: "نعم، أعرف أي نوع من الشخصيات هُما"
بدا ذلك وقحا بالنسبة لي، غير أن فيرونيكا لم تشعر بالإهانة، وبدلا من ذلك أخذت تُعدّد له أسماء الكليّات والعُمداء ومحلات الشاي

هناك، ما جعلني أشعر أنّها تتجاهلني.

"كيف تعرفين كل ذلك عن المكان؟"

"إن جاك هناك"

"جاك؟"

"أخي، ألا تذكُر؟"

"دعيني أفكر... ألستِ تقصدين الشّخص الأصغر من والدك؟"

لم أرَ أن تلك الدعابة كانت رديئة، لكنها لم تبتسم أقلّ ابتسامة.

"ماذا يدرس جاك؟" سألتُ، محاولًا تمهيد أرضيّة مشتركة بيننا.

"علوم الأخلاق" أجابت. "مثل أدريان."

أعرف ما الذي يدرسه اللعين أدريان، وأردت أن أقول: شكرا جزيلا لحضرتك. غير أني بدلا من ذلك قطبت جبيني قليلا ثم رحت أتحدث مع كولن عن الأفلام.

بينما النّهار يسير إلى نهايته، التقطنا صورًا كثيرة، كانت إحداها بطلبٍ منها، إذْ أرادت منّي أن ألتقط لها "صورةً مع أصدقائي" فاصطفّ الثلاثة بأدب في صفّ واحد، ثمّ قامت هي بإعادة ترتيبهم: أدريان ثم كولن، الطّويلين، على جانبيها، ثم أوقفت ألكس جوار كولن. بدَت في الصورة المطبوعة أنحف ممّا كانت عليه حقًّا. بعد سنوات طويلة، حين أعدت النظر إلى تلك الصّورة تحديدًا، بحثًا عن إجابات، تبادر إلى ذهني أنني لم أرها قط ترتدي أحذية بكعوب عالية من أي حجم. كنت قد قرأت من قبل أنه إذا أردت أن تجعل

الناس ينتبهون لما تقول، فلا ترفع صوتك، بل أخفضه أكثر: ذاك ما يجذب الانتباه فعلًا. ربما تكون هناك خدعة مشابهة فيما يخصّ طولها (رغم أن ممارستها الخداع من عدمه هو أمر لم أستطع حسمه حتى الآن) حين كنت أخرج معها كانت جميع تصرفاتها تبدو طبيعيّة، إلا أني وقتها كنت رافضًا للفكرة العامة القائلة إن النساء يتصرفن -أو يمكن أن يتصرفن- بتلاعُب وخُبث. يمكن لذاك القول إن يعطيك صورة عنّي أكثر مما يعطيك صورة عنها. حتى إذا ما كان عليّ أن أقرّر، في تلك المرحلة المتأخّرة، ما إذا كانت تبالغ دائما في التحسُّب لكل شيء، فلا أظن أن ذلك كان ليُساعد في شيء... أعني: يساعدني أنا.

أوصلناها إلى محطّة القطار الذّاهب إلى تشيرنغ كروس، ولوّحنا لها بأيدينا بطريقة تُحاكي بسُخرية حركات الأبطال، وكأنّها مُسافرة إلى سمرقند! ثم انطلقنا إلى الحانة في فندق المحطّة، نشرب البيرة ونشعر أننا صرنا كبارًا.

قال كولن: "فتاة لطيفة"

"لطيفة جدًّا" أضاف ألكس.

صحتُ فيهم: "هذا أمر مُبرهن فلسفيًّا!"

حسنا، لقد كنتُ مستثارًا قليلًا. استدرتُ نحو أدريان "هل من إضافة إلى (لطيفة جدًّا)؟"

"أنت لست بحاجة فعلية إلى أن أهنئك، أليس كذلك، أنتوني؟"

"نعم، عليك اللعنة، لكن لم لا؟"

"إذن، فأنا –بالطبع– أهنّئك"

غير أنّ ردّه ذاك وسلوكه أظهراه وكأنه ينتقد احتياجي لسماع المديح في حقّ الفتاة، ومحاولَة الآخرَين إشباع تلك الحاجة. هكذا شعرتُ بشيء من الاضطراب؛ لم أكن أريد لليوم الجميل أن يفسد. رغم أني حين أنظر ورائي الآن، أجد أنه لم يكن اليوم، لكن أربعتَنا، من كنّا على وشك أن نفسد.

"إذن، هل التقيت بأخيها جاك في كامبردج؟"

"كلا، لم ألتق به، ولا أظن أن ذلك سيحدث؛ هو في عامه الأخير. لكني سمعت عنه، وقرأت عنه في مجلة الجامعة، وأولئك الذين يخرج معهم، نعم"

كان واضحا أنه يريد أن يترك الأمر عند هذه النقطة، لكن لم يكن بوسعي أن أتركه.

"وما رأيك فيه إذن؟"

توقف أدريان. أخذ رشفة من البيرة ثم قال بحدة مفاجئة "أكره عدم جدية الإنجليز في التعامل مع الجديّة. أكرهها فعلا"

لو كنتُ في مزاج آخر، كنت سأعتبر ذلك هجومًا علينا نحن الثلاثة، لكني بدلا من ذلك، شعرت برغبة في الانتقام.

واصلتُ أنا وفيرونيكا الخروج معا، طوال عامنا الثاني. ثمّ ذات مساء،

وكانت قد ثملت قليلا، تركتني أضع يدي أسفل لباسها التحتي. شعرتُ بزهوٍ غامر وأنا أنطلقُ فيها. لم تكن لتتركني أضع أصبعي داخلها، لكننا دون كلام، وعلى مدى الأيام التالية، قمنا بالتوسّع في طُرُق اللذة. نرقد على الأرض نقبّل بعضنا؛ أخلع ساعتي وأشمّر كُمّي الأيسر، وأضع يدي على لباسها التحتي وأحركه برفق أسفل فخذيها؛ أبسط يدي على الأرض لتفرك نفسها إزاء رسغي المشدود حتى تصل إلى الذّروة. لأسابيع، جعلني ذلك أشعر بالسّيطرة، غير أن الاستمناء في حُجرتي كان يجعلني أشعر بالضغينة. ثم أي نوع من المقايضة ذاك الذي وضعتُ نفسي فيه؟ أفضل أم أسوأ؟ واكتشفتُ شيئا آخر لم أستطع فهمه: كان من المفترض أن أشعر أني أكثر اقترابا منها، إلا أن ذلك لم يحدث.

"إذن، هل تفكر إلى أين يمكن أن تمضي علاقتنا هذه؟"

قالتها هكذا، بشيء من الكآبة. كانت قد جاءت لشرب الشاي، وأحضرت معها قطعًا من كعك الفواكه.

"هل تفكرين أنتِ؟"

"أنا سألتُ أوّلا"

فكرت —وربما لم يكن ذلك ردّ فعل شجاع تماما— أنها لهذا السبب بدأت تتركني أضع يدي أسفل سروالها.

"هل على العلاقة أن تمضي إلى مكان ما؟"

"أليس هذا ما تفعله كل العلاقات؟"

"لا أعرف، لم أدخل في علاقات كافية من قبل"

"انظر توني، أنا لا أحب الرّكود"

فكرت في ذلك بعض الوقت، أو حاولت أن أفعل، لكني بدلا من ذلك كنت أرى إزائي منظرَ مياه راكدة، بطبقة قذرة تعلوها وحشرات تحوم فوقها. اكتشفت أنّي لست جيدا في خوض ذاك النوع من الحوارات.

"هل تظنين إذن أن علاقتنا راكدة؟"

قامت بتلك الحركة، رفعت حاجبيها فوق مستوى إطار النظارة. لم أعد أرى في الحركة أيّ شيء لطيف. واصلَت الكلام "ألا يوجد شيء بين الركود وبين أن نمضي لمكان ما؟"

"مثل أن نقضي وقتا لطيفا. نستمتع باليوم، وما شابه"

لكن مجرّد قول ذلك جعلني أفكر ما إذا كنت ما أزال أستمتع باليوم. فكرت كذلك، ماذا تريد مني أن أقول؟

"وهل تظن أننا نناسب بعضنا؟"

"إنك تواصلين إلقاء الأسئلة عليّ كأنك تعرفين إجابتها، أو كأنك تعرفين الإجابة التي تريدينها. لماذا إذن لا تخبريني إيّاها لأقول لك إن كانت هي إجاباتي أم لا؟"

"أنت جبان بعض الشّيء، أليس كذلك يا توني؟"

"أظن أنّي أقرب لأن أكون... مُسالمًا"

"حسنا، لا أريد أن أُفسد عليك صورتك عن نفسك"

فرغنا من احتساء الشّاي. وضعتُ القطعتين المتبقيتين من كعك الفواكه في عُلبة. منحتني فيرونيكا قُبلة هي أقرب لزاوية فمي منها للمركز، ثم غادرَت. في ذهني، كانت هذه هي بداية النهاية لعلاقتنا. أم أنّي أتذكّر الأمر على ذاك النّحو كي أجعله يبدو كذلك، لتبديد النّدَم. لو أنّي سُئلت في محكمة عمّا حدث وعمّا قيل، فإنني سأشهد على كلمة "تمضي" و"ركود" و"مسالم". لم أفكر في نفسي أبدًا كمُسالم -أو نقيض ذلك- حتى ذلك الحين. يمكنني كذلك أن أقسم على وقوع مسألة العلبة، كانت ذات لون عنّابي، وصورة جانبية على سطحها للملكة وهي تبتسم.

لا أريد أن أعطي انطباعا أني لم أكن أفعل في بريستول سوى العمل ومقابلة فيرونيكا. غير أن ذكريات قليلة أخرى تأتيني. أحدها -حدَث مُفرَد مميّز- هو الليلة التي شهدتُ فيها ظاهرة ارتفاع المدّ في نهر سيفرن. كانت الجريدة المحلية توزع جدولا زمنيا يحدد أفضل مكان لمشاهدته ومتى. لكن في المناسبة الأولى التي حاولت فيها ذلك، لم يبدُ على أحوال المياه أنّها توافق التوقّعات. ثمّ، ذات مساء، ذهبتُ إلى موقع قرية منستيرورث، وانتظرت مع مجموعة من المنتظرين على ضفة النهر حتى منتصف الليل قبل أن نحصد مكافأتنا الحقيقية. رُحنا نرقُب النهر ساعةً أو ساعتين ينسكب في البحر كما تفعل الأنهار الطيّبة كلّها. كانت إضاءات القمر المتقطعة

تدعمها الإضاءات المتباعدة للكشّافات. ثم كان همس، وأعناقٌ تمتدّ إلى الأمام، وتبدّدت كل الأفكار عن الرطوبة والبرد عندما بدا أنّ النهر – ببساطة – غيّر رأيه، ووجدنا موجة منه، ثم اثنتين، فثلاثة، تتوجه إلينا عكس اتّجاهها، بينما المياه تتكسر على ضفّتي النهر. صار ذاك الجيشان الضخم في مستوانا، واندفع ليتجاوزنا متقدّمًا لينحني فوقنا بعد مسافة بعيدة؛ انطلق بعض أصدقائي يركضون صارخين ولاعنين ومتساقطين مع تقدّم الموج إليهم؛ بينما وقفتُ عند الضفّة ساكنًا. لا أظن أنه بوسعي أن أصف بالضبط أثر تلك اللحظة عليّ. لم يكن الأمر كإعصار أو زلزال (وأنا لم أشهد من قبل أيًا منهما) أن تصير الطبيعة عنيفة ومدمّرة، وتضعنا في مكاننا الصّحيح. كانت أكثر إثارة للقلق لأنه بدا وكأنّ الأمر يجري على نحو خاطئ تماما، كأن في الكون مقبضًا صغيرًا قد أُدير، فحدث لدقائق وحسب أن انقلبت الطبيعة والزمن معها. فأن ترى تلك الظّاهرة في الظّلام جعلها أكثر غموضًا، وأكثر انتماءً للعالم الآخر.

بعد انفصالنا، نامت معي.

نعم، أعلم جيّدا، وأتوقع ما تفكرون فيه. ذلك السّاذج المسكين! كيف لم يتمكن من رؤية ما سيحدث؟ لكنّي لم أره. ظننت أننا

انتهينا، فهناك فتاة أخرى أنا مُعجب بها (ذات طولٍ طبيعي وترتدي أحذية الكعوب العالية في الحفلات). لم أتمكن من رؤية ما سيحدث إطلاقًا عندما اصطدمتُ بفيرونيكا في الحانة (هي لا تحبّ الحانات). لم أستطع رؤية أنها ستطلب منّي أن أوصلها إلى حيث تسكُن، وأنها عندما توقّفنا في منتصف الطريق ستقبّلني، وأنها عندما دخلنا غرفتها وأشعلتُ النور ستُطفئه، وأنها عندما خلعَت ملابسها الداخلية ستناولني علبة الواقيات الذّكريّة[9] خاصّتها، وأنّها لارتباكي ستأخذ الواقية الذكرية من يدي المُرتعشة وتضعها بنفسها، وكلّ ما تبقّى من تلك العملية المُنسابة.

نعم، يمكنك أن تقولها ثانية: أيّها الساذج المسكين، وما زلت وقتها تظنّها عذراء وهي تُلبس عُضوكَ الواقي الذكري؟ بطريقة عجيبة، تصوّر، نعم! كنت ما أزال أظنّها عذراء. فكّرتُ أنها ربما تكون إحدى المهارات الغريزية لدى المرأة التي كانت تنُقصني أيضًا. حسنًا، لعلّها كانت ذلك.

همسَت "عليك أن تواصل دفعه عند جذْبه خارجًا" (هل ظنّت أنّي بِكرٌ ربما؟) ثم نهضتُ ومشيتُ إلى الحمّام، الواقي الذكري الممتلئ يتدلّى بين فخذيّ لاطمًا باطنَيها. وبينما أنتزعه وصلت إلى قرار: كلّا، لقد مضت علاقتنا إلى الأبد، لا.

"أنت أيها الوغد الأناني" قالت عندما رأتني مرّة أخرى بعد تلك الليلة.

(9) Durex Fetherlite

"نعم، ها نحن ذا"

"هذا يجعل ما فعلته اغتصابًا كاملًا!"

"لا أظن أن أي شيء يجعله كذلك"

"كان عليك من باب الأدب أن تخبرني مسبقًا"

"لم أكن أعرف مسبقًا"

"أوه، هل كان سيئا إلى تلك الدرجة؟"

"لا، كان جيّدًا، فقط..."

"فقط ماذا؟"

"كنتِ دائما تطلبين مني التفكير في علاقتنا، وها أنذا فعلت. فكّرت"

"أحسنت! لابدّ أن ذلك كان صعبًا"

فكرتُ أنّي لم أرَ حتى ثدييها، طيلة أيّامنا معًا. لمستُهما، لكني لم أرهما. أيضًا، أنها مخطئة تماما بشأن موسيقى دفوراك وتشايكوفسكي. وماذا أيضًا، أنّه سيكون بإمكاني دونها أن أشغّل المقاطع الموسيقية لفيلم رجل وامرأة كما أريد، بحريّة تامة.

"عفوًا؟"

"يا إلهي، توني، لا يمكنك حتى التركيز الآن. كان أخي محقًّا بشأنك"

أدركت أنه ينبغي عليّ أن اسألها عمّا قاله جاك، لكني لم أشأ أن أمنحها تلك البهجة. مع بقائي صامتا، واصلَت الكلام...

"ولا تقل ذلك الشيء"

بدت الحياة أقرب إلى لُعبة تخمين أكثر ممّا هو معتاد.

"أي شيء؟"

"إننا يمكننا أن نبقى صديقين"

"هل كان ذاك ما ينبغي عليّ قوله؟"

"عليك أن تقول ما تفكّر فيه، ما تشعر به، يا إلهي، ماذا تعني..."

"حسنا. في هذه الحالة لن أقول ذلك، أو ما ينبغي عليّ قوله. لأنني لا أظن أنه يمكننا أن نصبح صديقين."

"أحسنت" قالت بتهكم "أحسنت"

"لكن دعيني أسألك سؤالا. هل نمتِ معي لتستردّيني فحسب؟"

"ليس عليّ أن أجيب على أسئلتك بعد ذلك"

"على أي حال، لماذا كنتِ ترفضين النّوم معي عندما كنّا نخرج معًا"

لا إجابة.

"لأنك لم تكوني بحاجة لذلك؟"

"ربما لأني لم أرغب في ذلك"

"ربما لم ترغبي في ذلك لأنك لم تكوني بحاجة إليه"

"حسنا، بإمكانك أن تصدق ما يلائمك أن تصدقه"

في اليوم التالي، أخذتُ إبريق الحليب الذي أعطتنيه إلى دكّان التبرّعات، وتمنّيت أن تراه معروضًا للبيع في واجهته الزجاجية. لكن حين توقّفت عند الواجهة إيّاها، وجدتُ هناك شيئًا آخرًا أثارت انتباهي: صورة صغيرة مطبوعة لضاحية تشيزلهرست كنت قد أعطيتها إياها في الكريسماس.

نختلف في تخصّصنا الجامعيّ، بينما بريستول مدينة كبيرة، وذلك ما جعل لقاءنا أمرًا مرهونًا للمصادفة كثيرًا. وحين يحدث ونلتقي، كان يلذعني إحساسٌ لا يمكنني تسميته سوى بأنّه تأهّب للإحساس بالذّنب: كانت لديّ قناعة دائمة أنها ستأتي لتقول أو تفعل ما يجعلني أشعر بالذنب. لكنها لم تتنازل أبدًا عن التحّدث معي، وبالتالي، زال ذاك الإحساس تدريجيًّا. ثم قلت لنفسي إنه ليس لدي ما يجعلني أشعر بالذنب: كنّا بالغَين تقريبًا، ومسؤولَين عن أفعالنا. دخلنا في علاقة لم تستمر. لم تحمل منّي، ولم يقتُل أحد نفسه.

في الأسبوع الثاني من الإجازة الصيفية وصلتني رسالة عبر بريد تشيزلهرست. تفحّصت الخطّ الغريب المتموّج دونما عناية كبيرة على الظّرف. خطّ أنثويّ: إنّها والدتها دون شك. لذعة أخرى من التأهّب للإحساس بالذنب: ربما عانت فيرونيكا من انهيار عصبي، صارت ضائعة ومتشردة، أو ربما أصيبت بالتهاب الصّفاق[10]، وهي الآن تطلب منّي من سرير المستشفى أن آتيها لتراني. أو ربما... لكن يمكنني القول إنّ تلك كانت خيالات تدور حول أهميّتي الشخصيّة. كانت الرسالة من والدة فيرونيكا فعلا، لكنّها مختصرة. وكانت، لدهشتي، دون أيّ نبرة فضول. كانت حزينة أننا انفصلنا، وأنّها

---

(10) التهاب الصفاق يشيع عند المرضى المصابين بالدرن، وهو التهاب حادّ وخطير يُصيب الأغشية المعويّة، ويتطلّب تدخّلا طبّيًا سريعا.

واثقة أنّي سأعثر على شخص أنسب، لكن لم يبدُ منها أنها تقصد أني وغد يستحق شخصًا منحطًا يشبهني، بل العكس، كان واضحا أنّي شخص رائع، وأنّها تتمنى لي حظًا طيّبا. وددت لو أني احتفظت بتلك الرسالة، لأنها كانت ستغدو دليلًا، تأييدًا ما. بدلا من ذلك، الدليل الوحيد الباقي هو دليلٌ مصدره ذاكرتي، لامرأة مبتهجة، تكسر البيض بمُتعة، وتطبخ لي واحدة، وتطلب منّي ألّا تنطلي عليّ أحابيل ابنتها.

عُدتُ إلى بريستول لإتمام عامي الأخير. وجدتُ الفتاة ذات الطّول الطبيعي التي ترتدي أحذية ذات كعوب عالية أقلّ اهتماما بي ممّا كانت عليه، فركّزت في الدراسة. في البداية، ساورني الشك في أنني ربما لا أتمتع بالذكاء الكافي، لكني كنت مُصرًّا على تحصيل درجات مرتفعة. في ليالي الجمعة، سمحتُ لنفسي بالذهاب إلى إحدى الحانات. ذات مرة، جاءت عندي الفتاة التي كنت أحادثها وقضت معي الليلة. كان الأمر مُثيرا للغاية ورائعًا، لكننا لم نتواصل بعد ذلك. فكرت في الأمر حينها لوقتٍ أقل مما أفعل الآن. أظن أن ذلك السلوك الترفيهي لن يصدم الأجيال اللاحقة إطلاقًا: الأجيال الحالية في وقتنا هذا، والأجيال "الحالية" وقتئذ. ألم نكن في الستينيّات؟ أجل، لكن كما قلت، الأمر يعتمد على أين تكون ومن تكون وقتها. لو سمحت لي بدَرسٍ تاريخيّ مختصر: معظم الناس لم يختبروا عقد الستينيّات حتى جاءت السبعينيّات، ما يعني أن

معظم الذين كانوا في الستينيّات عاشوا في الخمسينيّات. أو في مثل حالتي، عاشوا العقدَين جنبًا إلى جنب، وهو ما يجعل الأمور أكثر إرباكًا.

منطقيًّا: نعم، أين هو المنطق؟ أين هو، مثلا، في اللحظة التالية في حكايتي؟ ففي منتصف عامي النهائي تقريبًا، وصلتني رسالة من أدريان. كان قد أصبح حدوث ذلك أمرًا نادرًا أشدّ النُّدرة. كنّا ندرس بهمّة كبيرة في العام النهائي، وكان متوقعا له بطبيعة الحال أن يحصل على مركزٍ متقدّم. ثم ماذا؟ دراسات عُليا، ربما، يتبعها عمل أكاديميّ، أو وظيفة ما في محيط عمل عام حيث يمكن أن يُستغلّ عقله وإحساسه بالمسؤولية. أخبرني أحدهم أن الأعمال الحكوميّة (أو على الأقل، المراتب العليا منها) مكان رائع للعمل، حيث عليك دائما أن تتخذ قرارات أخلاقية. ربما كان ذلك يناسب أدريان. لم أكن أراه إطلاقًا شخصًا يعيش وسط الناس، أو مغامرًا، باستثناء كونه مغامرًا ذهنيًّا بالطبع. لم يكن من النوع الذي يصلُح للبروز باسمه وصورته في الجرائد.

يمكنك أن تظن أني أماطلُ في رواية ما حدث بعد ذلك. حسنا: قال أدريان أنه يكتب ليستأذنني في الخروج مع فيرونيكا.

نعم. لماذا هي؟ ولماذا في ذلك الحين؟ وأكثر من ذلك، لماذا يستأذنني؟ في الحقيقة، كي أكون صادقًا مع ذاكرتي بقدر ما يمكنني (وأنا لم أحتفظ بتلك الرسالة كذلك) فإن ما قاله هو أنّه وفيرونيكا يخرجان

معًا بالفعل، حالة من المواعدة الغرامية كانت ستنمو إلى علمي آجلا أم عاجلا؛ لذا بدا من الأفضل أن أعرف منه هو. أيضا، في تلك الفترة كانت تلك الأخبار تظهر بصورة مفاجئة، وكان يريد أن أفهم الأمر وأتقبله، لأنني إن لم أستطع ذلك، فسيكون مَدينًا بحُكم صداقتنا أن يعيد النظر في تصرفاته وقراراته. وفي الختام، أن فيرونيكا وافقت أن يكتب لي هذه الرسالة. بالطبع، كانت الرسالة إلى حدّ ما اقتراحها.

كما يمكن لك أن تتخيل، أعجبتني نوعًا ما وساوسه الأخلاقيّة! فقد افترضَ أنّي لو آمنتُ بأن هناك قانونًا أخلاقيًا فروسيًّا، أو بصيغة أفضل، مبادئ أخلاقيّة حديثة قد تمّ انتهاكها بفعلتهما تلك، فإنّه سوف –بشكل منطقيّ– يتوقف عن مضاجعتها. ذاك على افتراض أنها لم تكن تُماطله كما كانت تفعل معي. أعجبني أيضًا ذاك النفاق الكامن في الرسالة التي لم يكن غرضها إخباري عن أمرٍ لم أكن لأعرفه أبدًا على أيّ حال، أو ربما سأعرفه بعد فترة طويلة، بل أيضًا أن فيرونيكا عقدت صفقةً رابحة: باعتني لشراء صديقي الأكثر ذكاء، وماذا أفضل من ذلك؟ فتىً في جامعة كامبردج مثل أخيها جاك. وتحذّرني فيرونيكا أيضًا من خلال الرسالة أنها قد تكون في الجوار لو خططتُ للقاء أدريان، وذاك ما جعلني أخطط ألّا أقابله. مجهود جيد يستحق الاحترام. لابدّ أن أؤكّد أن هذه هي قراءتي لما حدث وقتها، أو بالأحرى، ما تُمليه عليّ ذاكرتي الآن لما قرأته

وقتها ولما حدث آنذاك.

*

لكني أظن أنّي أحملُ غريزةً للبقاء، للحفاظ على ذاتي. لعل هذا ما كانت تسميه فيرونيكا جُبنًا، وما كنت أسمّيه أنا: مُسالَمة. على أيّ حال، حذّرني شعور ما ألّا أتورّط بالتدخّل في تلك العلاقة، على الأقل الآن. فتناولت أقرب بطاقة بريديّة في متناول يدي، وكانت تحمل صورة جسر كليفتون المعلّق، وكتبتُ شيئًا من قَبيل: "ردًّا على رسالتك المبعوثة في اليوم الحادي والعشرين من الشّهر الحاليّ، يبعث الموقّع أدناه تحيّاته ويأمل إبلاغكم أنّ الأمور كلّها على ما يراوم بالنسبة له. الصّديق القديم." كلام سخيف، لكن واضح، ومناسب لتلك اللحظة. يمكنني أن أدعي -خاصة لنفسي- أني لم أكن آبه للأمر إطلاقا. يمكنني أن أستذكر دروس عامي الأخير بجد، أسيطر على مشاعري، ألّا اصطحب أحدًا إلى غرفتي من الحانة، وأن أمارس العادة السرية عند الحاجة، وأتأكّد من حصولي على الدرجة التي أستحقها. فعلت كل ذلك (وحصلت بالفعل على درجات مرتفعة).

بقيتُ، بعد أسابيع قليلة من نهاية الامتحانات، أخرج مع مجموعة أصدقاء مختلفة، أشرب بانتظام، وأدخّن قليلًا من الحشيش،

ونادرًا ما أفكر في تلك الرسالة. بعيدا عن تخيل ما يمكن أن تقوله فيرونيكا لأدريان عنّي (لقد سرق عذريّتي ثم تخلّى عنّي فورا، وذاك في الحقيقة اغتصاب، هل ترى؟")
تخيّلتها تتملّقه –وقد شهدتُ بداية ذلك– وتداهنه، وتغازل رؤاه عن نفسه. كما قلت، لم يكن أدريان يعيش وسط الناس، رغم نجاحه الأكاديميّ، ومن هنا كانت النبرة المتزمتة لرسالته، والتي اعتدت أن أقرأها بشعور متكرر من الرثاء لنفسي. عندما أجبت على الرسالة، في النهاية، لم أستخدم أيًّا من الأساليب السخيفة "للخطابات" حسب ذاكرتي، بل أخبرتهم رأيي بوضوح حول وساوسهما الأخلاقية المشتركة. نصحته كذلك بالحذر، لأن فيرونيكا في رأيي قد تعرّضت لتلفٍ ما في وقتٍ بعيد، ثم تمنّيت لهما حظًّا طيّبًا، وأحرقت رسالته في موقد فارغ (تصرّفٌ ميلودراميّ، نعم، لكنّه يُعتبر وقتها، وقد كنتُ شابًّا، مُخفّفًا) وقررت أنّهما معًا الآن باتا خارج حياتي إلى لأبد.

ما الذي كنت أعنيه بالتّلَف؟ ذاك مجرّد تخمين، لم يكن عندي دليل حقيقيّ. لكنّي حين أعيد النظر في عُطلة نهاية الأسبوع الحزينة تلك في منزل أهلها، أكتشف أنّي كنت مجرّد شابّ ساذج وجدَ نفسه عليلًا وسط أسرة متأنقة ذات مهارات اجتماعية. أمكنني بعدها أن أستشعر تعقيدًا ما بين فيرونيكا وبين والدها البطيء الأخرق، الذي كان يعاملني كأني في مَنزلةٍ أقلّ منهم. وأيضًا

بين فيرونيكا وبين أخيها جاك، الذي كانت ترى حياته وتصرفاته، بشكل واضح، شيئا لا مثيل له. كان هو المعنيّ بإصدار حكم بشأني عندما وُجّه لها سؤال عام عنّي، وكان السؤال يصير أكثر تنازلا في كلّ مرّة تكرّره فيها "إنّه صالح، أليس كذلك؟" من ناحية أخرى لم ألحظ أي تعقيد في علاقتها بأمها، التي كانت دون شك تفهمها بعمق. كيف واتت السيّدة فورد إذن تلك الفرصة لتحذيري من ابنتها؟ لأنه في ذلك الصباح، الصباح الأوّل الذي أعقب وصولي، أخبرَت فيرونيكا الجميع أنّي أودّ قضاء وقت أطول في السّرير، وخرجت هي مع أبيها وأخيها.

لم نتبادل على الإطلاق ما يبرّر ما قالته؛ فأنا لم أكُن أطيل النوم صباحًا على الإطلاق، ولا أفعل ذلك حتى الآن.

حين كتبت لأدريان، لم يكن واضحًا لي تمامًا ما عنَيته بالتّلف، وطيلة حياتي اللاحقة بعد ذلك، لم يتضح الأمر إلا قليلا. لم تكن والدة زوجتي (التي ليست لحسن الحظّ جزءًا من هذه الحكاية) تعتقد أني أصلح لابنتها تمامًا، لقد كانت صريحة في التعبير عن ذلك، كما كانت في كثير من الأمور. قالت ذات مرّة، حين أثيرت في الصحف قضية أخرى من قضايا الاعتداء على الأطفال، "أظنّ أننا جميعًا تمّ الاعتداء علينا". هل ما أريد أن أقوله أو أفترضُه هنا هو أن فيرونيكا ضحيّة لما نطلق عليه الآن "سلوك غير ملائم"؟ حالة من الشّبق المخمور دفعت بوالدها نحوها وهي تستحمّ، أو نائمة،

أو شيء ما أكثر من العناق البريء بينها وبين أخيها؟ كيف يمكن لي أن أعرف؟ هل عاشت لحظةً من الضياع التام؟ أو لحظةً من افتقاد الحُبّ بينما هي في أشدّ الحاجة إليه؟ أو لحظةً تناهت إليها خلالها مُحادثة لم يجدر بها سماعها فأدّت بالطفلة إلى الاستنتاج أنّ...؟ مرّة أخرى، لا يمكنني أن أعرف، ليس لدي دليل، مَرويّ أو موثّق، غير أنّي أتذكر ما قاله جو هنت الأب مجادلًا أدريان "إنّ الأفكار يمكن استنتاجها من الأفعال". هذا هو التاريخ، هنري الثامن أو غيره، لكنّي أظن أن العكس في العلاقات الإنسانية هو الصّحيح؛ يمكنك أن تستنتج الأفعال السّابقة من الأفكار الحاليّة.

أعتقد أننا جميعا نعاني من تلفٍ ما، بطريقة أو بأخرى. كيف لا، باستثناء لو كان هناك عالمٌ من الآباء المثاليين، والأقارب والجيران والزملاء المثاليين أيضًا؟ ثم يأتي السؤال الذي تُخبرنا إجابته كثيرًا عن كيفيّة التفاعل مع ذاك التّلف: هل نعترف به؟ أم نكبته؟ وكيف يؤثر ذلك في تعاملنا مع الآخرين؟ بعضهم يعترف بالتّلف ويحاول تخفيفه، والبعض الآخر يقضي عمره محاولًا مساعدة أولئك الذين نالهم التّلف، ثم أولئك الذين يتركّز اهتمامهم الأساسي في تجنّب حدوث مزيدٍ من منه، أيًا كان الثّمن. أمّا أولئك الذين تنعدم الرّحمة من نفوسهم وتقسو شخصيّاتهم، فينبغي الحذر منها.

ربما تظنّ أن كلّ ما قلته هُراء، مجرّد وَعظ، أعذار لتبرير الذّات. ربما تظنّ أنّي تعاملت مع فيرونيكا كرجُلٍ دون خبرة، وأن كل

"استنتاجاتي" تلك مقلوبة. مثلًا: "بعد أن انفصلنا، نامت معي" يمكن قلبها بسهولة إلى "بعد أن نامت معي، انفصلنا" يمكنك أيضًا الافتراض أن آل فورد أسرة إنجليزية طبيعية من الطبقة الوُسطى، وقد دسستُ عليهم اعتباطا فرضيّاتي الزائفة حول "التّلف" وأن السيدة فورد لم تكن تعبّر بلباقة عن انشغالها بي بقدر ما كانت تعبّر عن غَيْرة -لا تليق بها- من ابنتها! وربما يمكنك أن تطلب منّي أن أطبّق فرضيّتي حول التّلف على نفسي، وأفسّر أيّ نوع من التّلف عانيت منه على مرّ الأيام وماذا ترتّب عليه. مثلًا: كيف أثّر ذاك التّلف على صِدقي وجدارتي بالثّقة؟ وكي أكون أمينًا هُنا، لستُ واثقًا من قُدرتي على الإجابة عن ذاك السّؤال.

لم أتوقع ردًّا من أدريان، ولم يأتني رد. وصارت إمكانية رؤية ألكس وكولن وحدهما أقل جاذبية. كنا ثلاثة وصرنا أربعة، فكيف نعود ثلاثة ثانية؟ إذا ما أراد الآخرون أن ينفردوا بجماعتهم الخاصة، حسنًا، فليتفضلوا. كنتُ بحاجة إلى أن أنطلق في حياتي الخاصّة، وقد كان.

انضمّ بعض أصدقائي إلى منظّمات العمل التطوعي، وذهبوا إلى إفريقيا كي يعلّموا الأطفال هناك ويبنوا جدرانًا من الطين. لم يكن ذهني يطمح إلى ذاك العلوّ. أيضًا، في ذلك الوقت، كنتَ بشكلٍ ما تفترض أن درجةً علميّة محترمة ستضمن لك وظيفة محترمة، آجلا

أم عاجلا. "الواااااقتُ كلّه إلى جواربِيي... أجل هو كذلك..." كنت كثيرا ما أغنّي مع ميك جاغر (Mick Jagger) وأرقص في غرفة الدراسة. ثمّ، تركتُ الآخرين يتدرّبون للعمل كأطباء ومحامين ويُجرون اختبارات الوظائف الحكومية، توجّهتُ مُنطلقًا إلى لولايات المتحدة، وتجوّلت هناك قُرابة ستّة أشهر. عملتُ نادلا في المطاعم، وفي طلاء الأسوار الخشبية، ورعاية الحدائق، متنقلًا بالسيارة بين الولايات المختلفة. في تلك الأعوام، قبل اختراع الهاتف المحمول، والبريد الإلكتروني، وسكايب، كان الرحّالة يعتمدون على وسائل بدائيّة للتواصل تُعرّف ببطاقات البريد. الوسائل الأخرى –مثل المكالمات عبر المسافات الطويلة، التلغراف– كانت للطوارئ فقط. وهكذا، لوّح لي والداي مودّعين بينما أتوجّه نحو المجهول، وتقلّص ما يعرفانه من أخبار تتعلّق بي إلى "نعم، لقد وصل بسلام" و"إنّ آخر ما سمعناه عنه أنه في أوريغون" و"نتوقّع عودته خلال أسابيع قليلة". لا أقول إن ذلك كان بالضرورة أفضل، دع جانبا أنه أقوى في تشكيل الشخصيّة؛ لكنه في حالتي كان يبقيني بعيدًا عن متناول زرٍّ يضغطون عليه، ليقذفوا بمخاوفهم وقلقهم ونشرات الأرصاد الجويّة عليّ، ليحذّروني من الفيضانات والأوبئة والممسوسين الذين يلتهمون الرحّالة.

قابلتُ فتاةً حين كنت هناك: آني. إنّها أمريكية، تسافر متجولة مثلي. تعلّقنا ببعضنا، على حدّ تعبيرها، وأمضينا ثلاثة أشهر سويًّا. كانت

ترتدي قمصانًا من أنسجة سميكة، ولها عينان خضراوان رماديّتان وسلوك أليف مُحبّب. صِرنا عُشّاقًا بسهولة ومرعة؛ كان حظّي لا يصدّق، ولم يكن بوسعي أن أستوعب كيف حدث الأمر بتلك السّهولة: أن نكون أصدقاء وشركاء في الفراش، أن نضحك ونشرب وندخن قليلًا من الحشيش معًا، أن نكتشف جزءًا من العالم جنبًا إلى جنب، ثمّ نفترق دونما اتّهام أو ندم. "ما يأتي بسهولة، يذهب بسهولة" كما كانت تقول، وهي تعني ما تقول. لاحقًا، حين أنظر ورائي، أتساءل ما إذا كان شيء ما في داخلي قد تعرّض لصدمة جرّاء تلك البساطة الشديدة، فلم يتطلّب الفراق أيّ تعقيد أكثر كدليل على... على ماذا؟ عُمق العلاقة، جديّتها؟ رغم ذلك، يعلم الله أنه بإمكانك أن تعيش تعقيدًا وصعوبةً دون تحقيق أي جدية أو عمق. لاحقًا، وجدتني أتساءل ما إذا كانت فرضيّة "ما يأتي بسهولة، يذهب بسهولة" هي طريقتي في طرح سؤال يؤرّقني والبحث عن إجابته التي لم أكن قادرًا على الحصول عليها. على كل حال، ذاك خارج سياقنا. كانت آني جزءًا من حكايتي، لكن ليس هذه الحكاية.

حاول والداي الاتصال بي عندما حدث ذلك، لكن لم تكن لديهما أدنى فكرة عن مكاني. في حالة طوارئ حقيقية –مثل أن يتوجب قدومك لحضور وفاة والدتك– أتصوّر أن مكتب الخارجيّة قام بالاتصال بالسفارة في واشنطن، التي اتصلت بدورها بالسلطات

الأمريكية، التي طلبت من قوّات الشّرطة بدورها أن تفتّش طولَ البلاد وعَرضها عن فتىً إنجليزيّ مُبتهج يتشمّس وكان أقلّ ثقة بنفسه عندما وصل إلى هنا. الآن، كلّ ما تحتاجه هو رسالة نصّية.

عندما وصلت البيت، احتضنتني أمي بذراعين مُتصلّبين ووجهٍ مُلطّخ بالدّقيق. أرسلتني لأستحمّ بالماء السّاخن، وأعدّت لي شيئا ما تزال تفترض أنه "وجبتي المفضلة" والذي قَبِلته كما هو، وقد مرّت فترة قبل أن أقوم بتحديث معلوماتها بشأن حاسّتي الذّوقيّة. بعد قليل، ناولتني عددا قليلا من الرسائل كانت قد جاءتني في غيابي.

"يحسن بك أن تفتح هاتين أوّلًا"

تضمنت الأولى رسالة قصيرة من ألكس. "عزيزي توني" كُتب فيها. "أدريان مات. قتل نفسه. اتصلتُ بوالدتك، التي قالت إنها لا تعلم أين أنت. ألكس"

"اللعنة" قلت، وتلك أوّل شتيمةً أُطلقها أمام والدَيّ.

"أنا آسف لذلك يا بنيّ" لم يبدُ تعليق والدي مناسبا للمقام. نظرتُ إليه ووجدتني أفكر ما إذا كان صلعه وراثيًّا، وهل يُمكن لي أن أرثه منه؟

بعد تلك الفترة الاتفاقية من الصمت التي تنفّذها كل أسرة بطريقة مختلفة، سألتني أمي "هل تظن أن سبب ذلك هو ذكاؤه الشديد؟"

أجبتها "ليست لديّ إحصائيات حول علاقة الذكاء بالانتحار!"

"نعم، توني، لكنك تعرف ما أعنيه"

"لا، في الحقيقة لا أعرف"

"حسنا، لنتصور الأمر كذلك: أنت صبي ذكي، لكنك لست ذكيا إلى درجة تجعلك تفعل شيئا مثل ذلك"

حدقتُ فيها دونما تفكير. فتصوّرت هي أنّي أشجعها، فواصلت الكلام "لكن إذا كنتَ ذكيًّا جدًّا، فأظن أنه ينبغي أن تقلق في حال لم تكُن حَذِرًا".

وكي أتجنب الوقوع في فخ الاستماع لفرضيّتها تلك، فتحت رسالة ألكس الثانية. كان يقول إن أدريان نفّذها بكفاءة، وترك قائمة مفصّلة بأسبابه. "فلنتقابل ونتكلم. الحانة في فندق تشيرنغ إكس؟ اتّصل بي. ألكس"

أفرغتُ حقيبتي، ورتّبتُ أغراضي، ودوّنت بعض الملاحظات بشأن الرّحلة. استعدتُ إحساس الألفة بالمكان ونظامه ورائحته، بمُتَعه الصّغيرة، وملل المنزل الكبير. إلّا أن عقلي ظل يستعيد تلك المناقشات الحامية البريئة بيننا عندما شنق روبسون نفسه متدليًا من السّقف، قبل أن تنطلق حيواتنا بعد المدرسة. بدا لنا وقتها أن الأمر مُبرهن فلسفيًّا؛ أن الانتحار حقّ مكفول لكل شخص: الفعل المنطقيّ حين تُواجه مرضًا قاتلًا أو شيخوخة، أو يواجه بطلٌ تعذيبًا أو موتًا يُحيط بالآخرين ولا يمكن تجنّبه، أو شخص ساحرٌ في غمرة حُبّ مهزوم (انظر: كتب الأدب العظيم) لم يكن أيّ من ذلك ينطبق

على قرار روبسون البائس متوسّط القيمة.

ولم يكن أيّ منها ينطبقُ على أدريان أيضًا. في الرسالة التي تركها في أحد الأركان، كان قد شرح أسبابه: أن الحياة هِبَة تُمنح دون أن يطلبها أحد، وأن الشخص المفكّر عليه واجب فلسفي هو أن يختبر طبيعة الحياة والشّروط المصاحبة لها، وأن هذا الشخص إذا ما قرر أن يردّ تلك الهبة التي لم يطلبها أحد، فإن الواجب الإنساني والأخلاقي يحتم عليه الاشتغال على توابع ذاك القرار. هكذا وصل في آخر الرسالة إلى نهاية استنتاجاته المنطقيّة، كما طلب أن تُذاع حُجَجه تلك، فاضطرّ المسؤولون لفعل ذلك.

في النهاية، سألتُ "كيف فعل ذلك؟"

"قطع شريانه في الحمّام"

"يا إلهي. هذا مثل... اليونان، أليس كذلك؟ أم أنه طريقة اليونانيّين كانت تجرّع السّم؟"

"إنّه أقرب إلى النموذج الرومانيّ، كما أظن. قطْع الشريان، وكان يعرف كيف يفعلها. عليك أن تقطعه بشكل مائل. لو قطعته قطْعًا مستقيمًا فسينغلق الجرح ويفسد كل شيء"

"أسهل عليك أن تُغرق نفسك، ربما"

"سيكون ذاك انتحارًا من الدّرجة الثّانية" قال ألكس "وكان أدريان يُريد الدرجة الأولى"

ألكس على حق: حياة من الدّرجة الأولى، وانتحار من الدّرجة الأولى

أيضًا.

انتحر في حمّام شقّة يتشاركها مع طالبين من طلبة الدراسات العليا. كانا قد غادرا في رحلة خلال عطلة نهاية الأسبوع، ما أعطى أدريان وقتا كافيا لإعداد الأمر. كتب رسالته لطبيب التحقيقات الشرعيّ، واضعًا ورقة على باب الحمّام كُتب عليها "ممنوع الدخول – اتّصل بالشرطة – أدريان." ثم فتحَ الصّنبور، وأغلق الباب، وقطع شريانه في الماء الساخن، وظلّ ينزف حتى الموت. عثروا عليه بعدها بيوم ونصف.

عرض عليّ ألكس قُصاصةً من جريدة كامبردج إيفننغ نيوز: "وفاة مأساوية لشابٍّ واعد". من المحتمل أنها صيغة ثابتة يحافظون عليها دائمًا. كانت نتيجة التحقيق أن أدريان فِن (22 عامًا) قتل نفسه نتيجة "اختلال في قواه العقلية". أتذكر مدى الغضب الذي انتابني بعد قراءة تلك العبارة التقليديّة: كان يمكنني القسم أنّ عقل أدريان هو العقل الوحيد الذي يستحيل أن يختل توازنه، إلا أنه في نظر القانون، إذا ما قتلت نفسك، فأنت مجنون وفق التّعريف، على الأقل في اللحظة التي أقدمت فيها على الانتحار. القانون والمجتمع والدين، جميعهم يقولون باستحالة أن تكون عاقلا وتقتل نفسك. لعل السلطات تخوّفت من أن يفنّد تبرير الانتحار طبيعة وقيمة الحياة التي تنظّمها الدولة، التي تدفع للطبيب الشرعي راتبه. ومن ثمّ، إذا ما تم إعلانك مجنونا مؤقّتًا، فإن الأسباب التي تَسُوقها

لقتل نفسك هي بالتالي أسباب مجنونة أيضًا. أشك إذن أن أحدا اهتمّ بحجج أدريان، بإحالاته إلى فلاسفة قدماء ومعاصرين، وحول الاقدام على الفِعل، كَونه أرقى من السلبيّة التافهة المتمثّلة في الاستسلام للحياة التي تجري بك كيفما شاءت.

كان أدريان قد اعتذر للشّرطة عن إزعاجهم، وشكر الطبيب الشرعي على إعلان كلماته الأخيرة على الملأ. طلب كذلك أن تُحرق جثّته، وأن يُنثر رماده، لأن الإبادة الخاطفة للجسد هي أيضا قرار فلسفي إيجابي، وأفضل من الانتظار الكسول للتحلّل الطبيعي في باطن الأرض.

"هل ذهبت إلى العزاء؟"

"لم تُوجّه لي الدعوة. لا أنا ولا كولن. أسرتهم فقط، لا غير"

"وما رأيك؟"

"حسنا، هذا من حق الأسرة، على ما أظن"

"لا، لا أقصد ذلك. أعني أسبابه"

أخذ ألكس رشفة من زجاجة البيرة. "لم يكن بإمكاني أن أحدد ما إذا كان أمرا مثيرا للإعجاب أم خسارة فادحة لعينة"

"وهل...حدّدت؟"

"حسنًا، ربما الأمران معًا..."

قلت بينما أحدّق في ألكس "ما لا يمكنني فهمه، هو ما إذا كان أمرًا قائمًا بذاته، ليس من وجهة نظري الذاتية لكن من ناحية ارتباط

أدريان بالأمر، أم أنّهانتقاد ضمنيّ لآخرين... انتقادٌ لنا نحن مثلًا!"

"حسنًا، ربما الأمران معًا..."

"توقّف عن ترديد ذلك!"

"أتساءل ما الذي يفكر فيه أاساتذته في الفلسفة، ما إذا كانوا يشعرون بأي مسؤولية تجاه ذلك. لقد كانوا هم من قام بتدريب عقله، قبل كل شيء"

"متى رأيته آخر مرة؟"

"منذ ثلاثة أشهر تقريبًا قبل موته. بالضبط حيث تجلس أنت الآن. لهذا اقترحت هذا المكان."

"كان يذهب إذن إلى تشيزلهرست. كيف كان يبدو؟"

"مبتهجًا، سعيدًا. كما هو، ربما أكثر قليلا. ونحن نفترق قال لي إنّه عاشق!"

العاهرة، فكرتُ بيني وبين نفسي. لو كانت هناك امرأة في هذا العالم أجمع يمكن للرجل أن يحبّها ويبقى يرى أن العالم يستحق الكراهية، فهي فيرونيكا.

"ماذا قال عنها؟"

"لا شيء، أنت تعرف طبعه."

"هل قال لك أني كتبت له خطابا أخبره فيه كيف يُبعدها عنه؟"

"كلا، غير أن ذلك لا يدهشني."

"ماذا، أنّي كتبتُ الخطاب أم أنه لم يخبرك؟"

"حسنًا، ربما الأمران معًا..."

خبطت ألكس خبطة خفيفة، كادت معها أن تسقط زجاجة البيرة من يده.

في البيت، حين يتوفّر الوقت الكافي للتفكير فيما سمعت، كان عليّ أن أتجنب أسئلة أمي حول الأمر.

"ماذا عرفت؟"

أخبرتها قليلًا ممّا عرفت.

"لابدّ أنه كان مشهدًا سيّئًا لرجال الشرطة المساكين؛ والأشياء التي ينبغي عليهم فعلها. هل عانى من مشاكل عاطفية؟"

أراد جزء مني أن يجيب: بالطبع، فقد كان على علاقة بفيرونيكا! لكني بدلا من ذلك قلت ببساطة "ألكس قال إنّه كان سعيدًا عندما قابله آخر مرّة"

"لماذا انتحر إذن؟"

منحتُها مختصرا للمختصر، مُبقيًا على الأسماء البارزة للفلاسفة. حاولت أن اشرح فكرة رفض مِنحة الحياة التي لم يطلبها أحد، والإقدام على الفِعل إزاء السلبية.

هزت أمي رأسها كأنها فهمت كل شيء.

"ألم أقل لك، كنتُ على حق"

"كيف ذلك، ماما؟"

"كان ذكيا للغاية. إذا كنت ذكيا لهذه الدرجة يمكنك أن تقنع

نفسك بأي شيء؛ تاركا المنطق السليم خلفك. لقد كان عقله هو سبب تشوّشه، لهذا فعل ذلك"

"صحيح، ماما"

"هل هذا هو كل ما لديك لتقوله؟ تعني أنك توافقني؟"

كان عدم الرد هو الطريقة الوحيدة للحفاظ على أعصابي.

قضيت الأيام التالية أحاول التفكير في موت أدريان من كافّة جوانبه. بينما كنت أتوقع رسالة وداع موجهة لي، كنت محبطا من أجل كولن وألكس. وكيف لي أن أفكر في فيرونيكا الآن؟ كان أدريان يحبها، إلا أنه قتل نفسه: كيف يمكن تفسير ذلك؟ بالنسبة لمعظمنا، فإن تجربة الحب الأول، حتى لو لم تنجح –ربما تحديدًا عندما لا تنجح– فهي تمنحك شعورا بأن هناك شيئا في الدُّنيا يستحق الحياة لأجله. وبالرغم من أن الأعوام اللاحقة قد تغيّر وجهة النظر تلك، حتى يستسلم البعض منا لليأس من كل شيء، فإنّه عندما يصيبك الحبّ أوّل مرة، فلا شيء يماثله، هل يماثله شيء؟ هل توافقوني؟

إلا أن أدريان لم يوافقني. ربما لو كانت فتاة أخرى التي أحبّها... وربما لا. لقد شهد ألكس على الحالة المعنويّة المرتفعة لأدريان في لقائهما الأخير. هل حدث له أمر فظيع في تلك الأشهر الأخيرة؟ لكن، لو حدث أمر ما، لكان أدريان أشار إليه. كان الباحث عن الحقيقة والفيلسوف بيننا: لو كانت هذه هي أسبابه المعلنة، لو كانت هذه هي

أسبابه الحقيقية.

مع فيرونيكا، انتقلتُ من لومها على فشلها في إنقاذ أدريان إلى الشّفقة عليها: ها هي، حسبَتها بشكل ناجح، وانظر ما انتهت إليه. هل ينبغي عليّ أن أقدّم تعازيّ؟ لكنها ستظنني منافقًا. إذا اتّصلت بها، فإما أنها لن ترد، أو أنها ستلوي عنق الأشياء بحيث لا أعود قادرًا على التفكير بشكل سليم.

في النهاية، وجدتني أفكر بشكل سليم. يمكننا القول، متفهّمًا دوافع أدريان، واحترامها، والإعجاب بها. كان يحمل عقلًا أفضل مني وطبعًا أكثر حساسية، وفكّر بشكل منطقي، وتصرّف وفقًا لاستنتاجه المنطقي. بينما معظمنا -كما أظن- يفعل العكس. نتخذ قرارا غريزيًا، ثم نبني هيكلا منطقيًا لتبريره، ثم نقول على النتيجة أنها نتيجة تفكير منطقي! هل فكّرت أن تصرّف أدريان هو نقدٌ ضمنيّ لنا جميعا؟ كلا، أو على الأقل أنا واثق من أنه لم يكن يعني ذلك. كان أدريان جذّابًا لكنه لم يكن يتصرّف أبدا وكأنه يُريد أتباعًا. كان يؤمن أنّ علينا جميعًا التفكير باستقلال. هل "استمتع بالحياة" كما فعل معظمنا، أو حاول أن يستمتع؟ هل عاش حياته؟ ربما، وربما يكون قد عانى من الشّعور بالذنب والتعاسة؛ لأنه فشل في التوفيق بين أفعاله ونظريّاته، غير أنه لا شيء ممّا سبق يغيّر من حقيقة أنها كانت، بحسب تعبير ألكس، خسارة فادحة لعينة.

بعد عام، اقترح ألكس وكولن أن نجتمع. في الذكرى السنويّة لوفاة أدريان، التقينا ثلاثتنا للشَّراب في فندق تشيرنغ كروس، ثم ذهبنا لنتناول وجبة طعام هنديّ. حاولنا أن نستدعي ذكرى صديقنا ونحتفي بها. تذكرناه وهو يخبر جو هنت الأب أن عمله دون قيمة، ويشرح لِفيل ديكسون مسألة إيروس وثاناتوس. كنا قد قمنا بتحويل ماضينا إلى حكاية. استعدنا بهجتنا حين علمنا أن أدريان فاز بمنحة دراسيّة في جامعة كامبردج. واكتشفنا أن هناك واحدًا من بيننا لم ندخُل بيته قط رغم أنّه دخل بيوتنا جميعا؛ وأننا لم نعلم قط –هل سألنا عن ذلك؟– ماذا يعمل والده. شربنا نخبًا، نبيذًا في حانة الفندق وبيرة بعد العشاء. في الخارج، ضرب كلّ منا الآخر على كتفه وأقسمنا أن نكرّر هذا الاجتماع سنويًّا. غير أن حياة كل منّا كانت تمضي في اتجاه مختلف، ولم تكن ذكرياتنا المشتركة عن أدريان كافية لتجمعنا. لعلّ نقص الغموض حول موته كان يعني أن إغلاق قضيته بات أسهل. كنّا نتذكره طوال الوقت، بالطبع. غير أنّ موته كان نموذجيًّا أكثر منه، "تراجيديًّا" كما أصرّت جريدة كامبردج، وهكذا انسحب منّا سريعًا، وانزلق في الزّمان والتاريخ.

بحلول ذلك الوقت كنت قد تركت منزلنا، عملتُ متدرّبًا في قسم إدارة الفنون في الجامعة. ثم التقيت مارغريت. تزوّجنا. وبعد

ثلاثة أعوام وُلدَت سوزي. اشترينا منزلا صغيرا برهن عقاري كبير. كنت أسافر إلى لندن يوميًّا. تحوّل التدريب إلى مهنة دائمة. مضت الحياة. يقول الإنجليز: إنّ الزّواج وجبة طويلة مملّة تُقدّم في بدايتها حلوى الكريم. أظن أن هذا رأيٌ متشائم إلى حدّ كبير؛ فقد استمتعت بزواجي، لكنه كان هادئًا –ومسالمًا للغاية– وذلك لمصلحتي. وبعد اثني عشر عامًا دخلت مارغريت في علاقة مع رجُلٍ كان يُدير مطعمًا. لم أكن أحبّه ولا أستلذّ طعامه (هل كان بإمكاني غير ذلك؟) تقاسمتُ وطليقتي مهام رعاية سوزي. بدت، لحسن الحظ، غير متأثرة بانفصالنا؛ وكما أكتشف الآن، أرى أنّي لم أطبّق عليها قط فرضيّتي بخصوص "التلف."

بعد الطلاق خُضتُ عدّة علاقات عابرة، غير أنّ أيًّا منها لم يكن جادًّا. كنت أخبر مارغريت دائمًا عن كل صديقة جديدة. بدا ذلك طبيعيًّا وقتها، والآن، أفكر ما إذا كانت محاولة لجعلها تغار، أو ربما كانت نوعًا من الحماية الذاتية؛ طريقة لمنع العلاقة الجديدة من التحوّل إلى شيء جاد. أيضًا، في حياتي الخاوية، توصّلت إلى عدّة أفكار أطلقتُ عليها "مشاريع"؛ ربما كي أجعلها تبدو معقولة. لم ينته أي منها إلى شيء مُنجَز. حسنًا، ليس لذلك أهميّة، ولا لأي جزء من حكايتي.

كبُرَت سوزي، وبدأ الناس في مناداتها "سوزان". عندما بلغت الرابعة والعشرين من عمرها، سرتُ وإيّاها في حفل الزّواج. زوجُها كِن،

طبيب. أنجبا طفلين حتى الآن: ولدٌ وبنت. صورهما التي أحملها في محفظتي هي لهما في عمر صغير. هذا طبيعي، على ما أفترض، وكي لا نقول "أمر مُبرهن فلسفيًّا" لكنك تجد نفسك تُردّد "لقد كبُرا بسُرعة، أليس كذلك؟" بينما كلّ ما تعنيه في الحقيقة هو: إنّ الزمن يمضي سريعًا بالنسبة لي هذه الأيام.

اكتشفت مارغريت أن زوجها الثّاني ليس مسالمًا أبدًا؛ فقد دخل في علاقة مع فتاة تشبهها إلا أنها تصغرها بعشرة أعوام حسمَت المسألة. ظلّت العلاقة بيننا جيّدة؛ نلتقي في المناسبات العائلية وأحيانا نتناول الغداء سويًا. مرّة، بعد كأس أو كأسين، جاشَت عواطفها واقترحت أنه يمكننا العودة إلى بعضنا. لقد عِشنا تجارب أكثر عجبًا من عودتنا إلى بعضنا! تلك كانت كلماتها. لا شك في ذلك، غير أنّي بتُّ مُعتادًا على نمط حياتي، مفتونًا بوحدتي. أو ربما أنّي لستُ عجيبًا بما يكفي لفعل أكر كالّذي تدعوني إليه. تكلمنا مرة أو مرتين حول قضاء عُطلةٍ معًا، غير أن كل واحد منا توقّع من الآخر أن يقوم بحجز التذاكر والفنادق. وبالتالي لم يحدث شيء أبدا.

أنا متقاعد الآن. لدي شقتي ومقتنياتي، وأحافظ على التواصل مع بعض رفقاء الشُّرب. ولديّ بعض الصديقات، صداقة أفلاطونية بالطبع (وهن لسن جزءًا من هذه الحكاية كذلك). أنا الآن عضو في جمعيّة التاريخ المحلّي، رغم أني أقلّ اهتمامًا من بعض الأعضاء بما قد تكشفُه لنا كاشفات المعادن من كنوز أرضنا. منذ فترة تطوّعت

لإدارة مكتبة عامة في مستشفى. أوزّع الكتب على الغُرَف: أجمعُ قَديمها وأقترح عناوين أخرى. ذاك يُسَرّي عني. من الجيّد أن تفعل شيئا ما نافعًا، كما أنه أتيحت لي مقابلة ناس جُدُد. مرضى، بالطبع، وآخرون على وشك الموت بطبيعة الحال. كما أني سأعرف طريقي داخل المستشفى عندما يحين دوري.

تلك هي الحياة، أليس كذلك؟ بعض الإنجازات وبعض الإحباطات. بدا الأمر مثيرا لي، ولم أعترض أو أندهش لو وجد الآخرون الحياة أقلّ إثارة منّي. ربما كان أدريان يعرف ما الذي يفعله. لكن ذاك لا يعني أنّي قد أُقدم على التضحية بحياتي لأجل أيّ شيء، أنت تفهم قصدي.

لقد نجوتُ "نجا كي يحكي الحكاية" – هذا ما يقوله الناس، أليس كذلك؟ التاريخ ليس أكاذيب المنتصرين كما قلتُ ذات مرّة ببساطة لجو هنت الأب. أُدرك الآن أنّه أقرب لأن يكون ذكريات الناجين: أولئك الذين لم ينتصروا ولم ينهزموا.

ثانيًا...

مع مُضيّ الحياة، تتوقع أن تحظى بشيء من الرّاحة لاحقًا، أليس كذلك؟ تظنّ أنك تستحقها. أنا شخصيًا توقعت شيئا من الراحة على أي حال، لكنك سرعان ما ستفهم أن مكافأة نهاية الخدمة ليست من شأن الحياة أبدًا كي تُهديها لك.

أيضًا، عندما تكون صغيرا في السن، تظن أنه بمقدورك توقّع الآلام والأحزان التي سيجلبها لك التقدُّم في العمر. تتخيل نفسك وقد صرت وحيدا، مُطلّقًا، أرمل؛ يكبر الأطفال فيذهبون بعيدا عنك، ويموت الأصدقاء. تتخيّل فُقدان مكانتك، وفقدان الرّغبة في أيّ أحد، أو الشّعور برغبة أيّ أحد فيك. ربما تذهب بعيدا في الخيال وتتصوّر نفسك وأنت تقترب من الموت الذي -مهما كثُرَ الأصحاب حولك- ستلقاه وحيدًا. غير أن كل ذلك هو محضُ تطلّع إلى الأمام. ما تفشل فيه هو التطلّع إلى الأمام ثم تخيّل نفسك وأنت تنظر وراءك من تلك النقطة المستقبلية. تكتشفُ، على سبيل المثال، مع تناقص أقوال الشّهود على أحداث حياتك، أنّك تفقد من يؤكّد ما حدث، فلا تغدو متيقّنًا ممّا أنت عليه، أو ما كنت عليه. حتى وإن كنت مُحافظًا على عادة توثيق الذّكريات بدأب، سواء بالكلمات أو الأصوات أو الصّور، فربما تجد وقتها أنك أوليتَ عنايتك لاختيارات خاطئة لما ينبغي توثيقه. ما هي تلك العبارة التي كان أدريان يقتبسها؟ "التاريخ هو ذاك اليقين الناتج عن التقاء خلل الذّاكرة بنقص التوثيق"

ما أزال أقرأ كثيرا في التاريخ وعنه، كما تابعت بطبيعة الحال أحداث التاريخ الرسميّ التي حدثت في حياتي: سقوط الشيوعية، والسيدة ثاتشر، والحادي عشر من سبتمبر، والاحترار العالمي، تابعتها بمزيج طبيعي من الخوف والقلق والتفاؤل والحذر. غير أني لم أشعر قط بتلك الأحداث ولا وثقتُ بها كما شعرت أو وثقت بأحداث التاريخ اليوناني أو الروماني، أو الإمبراطورية الإنجليزية أو الثورة الروسية. لعلّي ما أزال أشعر بالأمان أكثر مع التاريخ المتّفَق عليه، أو لعلّه التناقض نفسه مرّة أخرى: التاريخ الذي يحدث أمام أبصارنا يُفترض أنّه هو الأكثر وضوحًا، وبالتالي فهو الأكثر ميوعة. نحن نعيش في الزمن، يُحيط بنا ويقوم بتعريفنا، والزمن هو مقياس التاريخ، أليس كذلك؟ لكننا إذا لم نستطع فهم الزمن، ولا إدراك لغز إيقاعه وتقدّمه، فأي فرصة لدينا مع التاريخ، حتى وإن كان تاريخنا الشخصي، الصغير، وتحديدًا الجزء غير الموثق منه؟

عندما كنّا صغارًا، كان كل من تجاوز الثلاثين يبدو في منتصف العمر، وكل من تجاوز الخمسين يبدو عتيقا. والزمن، إذ يمر، يؤكد لنا أننا لم نكن على خطأ. تتآكل تلك الفروق العمرية الضئيلة، الحاسمة والضخمة، ونحن صغار. ننتهي جميعا إلى الانتماء للفئة العمرية نفسها، أولئك الذين ليسوا صغارًا. أنا شخصيا لم آبه قط لذلك الأمر.

غير أن هناك استثناءات للقاعدة. بالنسبة لبعض الناس، تلك الفروق العمريّة التي تقوم في فترة الشباب لا تزول أبدًا: الكبار يبقون كبارًا، حتى عندما يُصبح الأصغر منهم مُسنًّا، وتتدحرج لحيته البيضاء. بالنسبة للبعض، فارقٌ عُمريّ مثل خمسة أشهر على سبيل المثال يعني أنّه سيظل يرى نفسه دائما –أو نفسها– أكثر حكمة ومعرفة من الآخر، مهما أثبتت الدلائل عكس ذلك. أو ربما عليّ أن أقول لأن الدلائل تثبت العكس، لأنه يبدو واضحًا تمامًا لأي مُراقب موضوعيّ أن الميزان يميل لكفة الأصغر سنًّا، بينما يحافظ ذلك الآخر على افتراض تفوّقه بشكلٍ محموم، بشكل أكثر عصابية.

ما أزال أستمعُ لموسيقى دفوراك، بالمناسبة. لا السمفونيات على الأرجح، بل أفضّل هذه الأيام تلك الرباعيّات الوتريّة. غير أن تشايكوفسكي صار مثل أولئك العباقرة الذين يسحرونك في الشباب، يحتفظون ببقية من طاقتهم وأنت في منتصف العمر، إلا أنهم يبدون لاحقا –إن لم يسبب قولي إرباكًا– أقلّ حميميّة. لا أعني أنّ فيرونيكا كانت على صواب بشأنه. ليست هناك مشكلة في أن تكون عبقريًّا يسحر الشباب؛ لكن بالأحرى هناك مشكلة ما في الشباب الذين لا يمكن لعبقريّ أن يسحرهم. بشكل مفاجئ، لم أعد أجد موسيقى رجل وامرأة عملًا عبقريًّا. حتى في ذلك الوقت،

لم أكن أرى ذلك. من ناحية أخرى، أتذكر بين الحين والآخر تيد هيوز وتلك السّمة الحقيقيّة، أن الحيوانات في شعره لم تكن تنفد أبدًا.

علاقتي بابنتي سوزي جيّدة جدًّا. جيدة بما يكفي على أي حال. إلا أن الجيل الجديد لم يعد يرى حاجةً، أو حتى التزاما، بأن يبقى على تواصل مع آبائهم. على الأقل ليس "البقاء على تواصل" كما في "الزيارات". "رسالة بريد إلكتروني تكفي بابا – لسوء الحظّ أنّه لم يتعلّم بعد استخدام الرسائل النصيّة. نعم، إنه متقاعد الآن، ما يزال ينقّب حول "مشاريعه الغامضة" تلك، وأشكّ أنّه سيُنهي أي شيء منها، إلا أن تلك المشاريع تُبقي ذهنه مشغولًا على أي حال، أفضَل من لعب الغولف، و... نعم، كنّا نخطط أن نزوره الأسبوع الماضي حتى عرض لنا عارض. أتمنى ألّا يصيبه الألزهايمر، هذا هو أكثر ما أخشاه في الحقيقة، لأنّ... ماما على وشك استعادته ثانية، أليس كذلك؟" كلّا: أنا أُبالغ، وأشوّه الصّورة. سوزي لا تشعر إزائي بتلك المشاعر، أنا متأكد. فالحياة وحيدًا تجعلُك تمرّ بلحظاتٍ من الشّفقة على النفس والشعور بالاضطهاد. كلا، علاقتي بسوزي جيدة جدا.

صديقة لنا، ما زلتُ أقول ذلك بشكل غريزي، رغم أنّي ومارغريت انفصلنا منذ وقت يزيد عن عمر زواجنا– لديها صبيّ بات عضوًا في

فِرقة روك داعرة. سألتها ما إذا كانت قد سمعت أيًا من أغانيها، فأشارت لواحدة تُدعى "كل يوم هو يوم أحد" أتذكر أني ضحكت ارتياحًا أنّ ملل المراهقين نفسه ينتقل من جيل إلى جيل. وأيضًا، أن الحسّ السّاخر نفسه يتم استعماله للهروب من ذاك الملل. "كل يوم هو يوم أحد" – أخذتني الكلمات إلى أعوام ركودي، والانتظار المريع للحياة أن تبدأ. سألتُ صديقتنا عن أغانٍ أخرى للفرقة. أجابتني، لا، هذه هي أغنيتهم الوحيدة. سألتها، كيف يمضي الأمر إذن؟ ماذا تعني؟ حسنًا، ما هو السّطر التالي؟ أنت لا تفهم، إنهم يرددون تلك العبارة مرة تلو الأخرى، حتى تأتي اللحظة التي تنتهي فيها الأغنية. أتذكّر أني ابتسمت. "كل يوم هو يوم أحد" هذه عبارة مناسبة لتكون نَقشًا على ضريح، أليس كذلك؟

كان واحدا من تلك المغلّفات البيضاء الطويلة التي تحمل اسمي وعنواني. لا أعرف موقفك منها، إلا أني لا أتعجل فتحها أبدًا. قبل ذلك، كانت تلك الملفّات تعني مرحلة مؤلمة أخرى في طلاقي. ربما لذلك ما أزال أتخوّف منها. ربما تحوي الآن مستندات ضريبيّة لتلك الأسهم الهزيلة التي اشتريتها عند تقاعدي، أو مطالبات بالزيادة من المؤسسة الخيرية التي أقوم بدعمها بشكل منتظم. إذن، نسيت ذلك الخطاب حتى اليوم التالي، عندما كنت أقوم بجمع الورق المتناثر في الشقة –حتى آخر مغلّف – لإلقائها في سلة المهملات.

اكتشفت أنه خطاب من شركة للمحامين لم أسمع بها من قبل، تُدعى مسرز كوبل، إن وبلاك. مُحامية تُدعى إليناور ماريوت كتبت لي "بشأن تركة السيدة سارة فورد (المتوفاة)." احتجتُ وقتا حتى أدرك الأمر.

نعيش في هذه الحياة بافتراضات بسيطة، أليس كذلك؟ مثلًا: أن الذاكرة تساوي الوقائع زائد الزمن. إلا أن الأمر أكثر تعقيدا من ذلك. من الذي قال إن الذاكرة هي مكمن ما نظن أننا نسيناه؟ ينبغي أن يكون واضحا لنا أن الزمن لا يعمل كمثبّت، بل بالأحرى كمُذيب. إلا أن ذلك الاعتقاد ليس مُناسبًا، ولا مفيدًا؛ فهو لا يساعدنا أن نمضي قُدمًا في حياتنا، فنقوم بتجاهله.

تطلب منّي الرسالة أن أؤكد عنواني وأزوّدهم بصورة ضوئية لجواز السفر. تُعلِمني أن نصيبي خمسمائة جنيه استرليني و"وثيقتين"؛ وكان ذلك محيّرًا. أوّلًا، أن تنال إرثًا من شخص لا أكاد أعرف اسمه أو ربما نسيته تماما. كذلك، إن خمسمائة جنيه استرليني بدا مبلغًا ذا معنىً مقصود؛ فهو أكبر من أن يكون دون قيمة، وأقلّ من أن يشكل ثروة. ربما أكتشف المعنى لو عرفتُ متى كتبَت السّيدة فورد وصيتها. رغم أنه، إذا مرّ وقت طويل على الوصية، فإن القيمة الموازية للمبلغ ستكون كبيرة، فيغدو الرّقم أقلّ قابلية للتفسير.

أكّدتُ وجودي، هويّتي، ومكاني، مُلحقًا بالخطاب صورة ضوئيّة تؤكد ذلك. سألت ما إذا كان بإمكاني معرفة تاريخ الوصية. ثم، ذات مساء، جلست محاولا استعادة ذلك اليوم المهين في تشيزلهيرست قبل أربعين عاما. فتشت عن أي لحظة، حادثة أو ملاحظة تبدو جديرة بالتّقدير، إلا أن ذاكرتي باتت تنحو بشكل متزايد إلى تكرار المعلومات الحقيقية ذات الاختلافات الضئيلة بينها بشكل آليّ. حدّقت في الماضي، انتظرت، وحاولت أن أمضي بذاكرتي في طريق مختلف. إلا أن ذلك لم يؤد إلى شيء. كنت مجرد شاب صاحبَ ابنة السيدة فورد (المتوفاة) لقرابة عام، استضافَه زوجها، راقبه ابنها بشغف، وتلاعبت به ابنتها. كان مؤلما في ذلك الوقت، لكن الأمر لا يصل لاعتذار أموميّ قيمته خمسمائة جنيه استرلينيّ.

وعلى أيّ حال، ذلك الألم لم يستمر طويلا. كما ذكرت، أحمل غريزة ما للحفاظ على ذاتي. نجحت في إخراج فيرونيكا من رأسي، وخارج تاريخي، فلمّا مرّ الزمن بي سريعا نحو منتصف العمر، وبدأت أنظر خلفي لأرى كيف مضت حياتي، مفكّرًا في الطرق التي لم أسلكها، تلك الـ"ماذا لو" السّاكنة الهدّامة. لا أجد نفسي أتخيّل – حتى في أسوأ مثال– كيف كان يمكن للأمور أن تصير مع فيرونيكا؟ آني نعم، فيرونيكا لا. ولم أندم قط على أعوامي مع مارغريت، حتى وإن كنا قد انتهينا بالطلاق. مهما حاولت –وهو ما لم يكن صعبا–

نادرًا ما تخيّلت حياة مختلفة تماما عن تلك الحياة التي عشتها. لا أظن أن ذلك رضًا عن النفس؛ إنه بالأحرى فقر في الخيال، أو الطموح، أو أي شيء آخر. أفترض أن الحقيقة هي، نعم، أليس عليّ أن أنحو منحىً شاذًّا بما يكفي كي أنتهي إلى نهاية مختلفة عن تلك التي وصلت إليها؟

*

لم أقرأ خطاب المحامي مباشرة. نظرت، بدلا من ذلك، إلى محتويات المغلّف؛ مغلف طويل، كريمي اللون ويحمل اسمي عليه. مكتوب بخط يد رأيته مرة واحدة في حياتي من قبل، لكنه مألوف رغم ذلك. السيد المحترم / أنتوني وبستر- طبيعة الخط بتموجاته أعادتني لامرأة تعرّفت عليها ذات مرة قبل سنوات طويلة في عطلة نهاية أسبوع، لشخص يقترح خطّة ما، وثقته أكبر مّا يوحي به شكله، إنه لامرأة "غريبة بما فيه الكفاية" لتفعل أشياء لم أفعلها. لكن ما عساها تكون تلك الأشياء؟ لا يمكنني أن أعرف أو أخمّن. كان هناك مقدار بوصة من شريط لاصق على مقدّمة المغلّف، في المركز منه. توقّعت أن تكون محيطة بالمغلّف لتشكّل ختمًا إضافيًّا لا يفضّه سوى المُرسَل إليه. ربما تكون الرسالة قد وصلت لشخص آخر من قبل.

في النهاية، فتحتُ الرسالة وقرأت "عزيزي توني، أظن أنه من حقك أنت استلام هذا الملحق. كان أدريان يتحدث دائما عنك بحب، وربما تجد ذلك مثيرا، وإن كان مؤلما، تذكارا من زمان قديم. أترك لك أيضا قليلًا من النقود. ربما تجد ذلك غريبًا، حتى أكون صادقة معك فأنا لا أعرف بالضبط دوافعي. على أيّ حال، أنا آسفة لتلك الطريقة التي عاملَتْكَ بها أسرتي في تلك الأعوام الماضية، وأتمنى أن تكون بخير، حتى وأنا داخل القبر. المُخلصة سارة فورد. ملحوظة: ربما يبدو ذلك غريبا، غير أني أظن أن الأشهر الأخيرة في حياته كانت سعيدة".

طلبت مني المحامية التفاصيل البنكيّة الخاصة بي كي تتمكن من تحويل التّرِكة مباشرة، وأضافت أنها ألحقت "الوثيقة" الأولى التي تخصني بالأوراق، أمّا الثانية فهي في حوزة ابنة السيدة فورد. اكتشفت أن ذلك يفسّر الجزء المقطوع من الشّريط اللاصق. كانت السيدة ماريوت تحاول الحصول على هذه الوثيقة الثانية، أما بخصوص وصية السيدة فورد –إجابة عن سؤالي– فقد كُتبَت منذ خمسة أعوام.

*

كانت مارغريت تقول إن هناك نوعان من النساء: الواضحات، والسّاعِيات نحو الغموض، وأنّ ذلك هو أوّل ما يشعر به الرجل، وأول ما يجذبه، أو ينفّره. بعض الرجال ينجذب لهذا النوع، والآخر لذاك. مارغريت -لعلّك استنتجتَ مُسبقًا- كانت واضحة، لكنها في بعض الأحيان تُبدي شيئًا من الحسد للّواتي يُبدين، أو يتصنّعن، شيئًا من الغموض.

"أحبك مثلما أنتِ الآن، فحسب" قلت لها ذات مرة.

أجابتني "لكنك تعرفني تماما الآن" كنّا قد تزوجنا منذ ستّ سنوات أو سبع "ألا تفضّل أن أكون... أكثر غموضًا؟"

"لا أريدك أن تكوني امرأة غامضة. أظن أنّي سأكره ذلك. فذاك مجرّد مَظْهَر زائف أو لعبة، تكنيك لصيد الرجال. أو أن تلك المرأة الغامضة هي غامضة بالنسبة لنفسها، وهذا أسوأ شيء على الإطلاق"

"توني، كم تبدو رجلًا حقيقيًا في هذا العالم"

"حسنا، لكني لست كذلك" أجيبها، واعيًا أنها تختبرني.

"لم تعرف ذاك العدد الكبير من النساء في حياتك، وربما لا تعرف كثيرًا عن النساء، لكنّك تعرف ما تحِبّ؟"

"لم أقل ذلك، ولم أقصده على ذاك النحو. لكني أظن أني عرفت قليلًا منهن وقارنت بينهن واستخلصتُ رأيي فيهن، ما أحبه وما أكرهه. ربما لو عرفت مزيدًا لكنت صرت أكثر ارتباكًا"

قالت مارغريت "لا أعرف الآن ما إذا كان عليّ أن أعتبرها مجاملة أم لا"

كان كل ذلك قبل أن يمضي زواجنا في الاتجاه الخطأ، بالطبع.

لكنه ما كان ليدوم لو أن مارغريت كانت أكثر غموضًا، أؤكّد لك —ولها— ذلك.

*

وقد انتقل شيء منها إليّ عبر السّنين. على سبيل المثال، لو لم أكن أعرفها، لربما كنت صرت أكثر صبرا في تبادل الرسائل مع المحامية، غير أنّي لم أستطع أن أنتظر، في سكون، مغلّفًا آخر يحمل مربّعًا شفّافًا على وجهه منها. بدلا من ذلك، اتصلت بها، المحامية إليانور ماريوت، وسألتُها عن تلك الوثيقة الأخرى.

"تقول الوصية إنّها مذكرات"

"مذكرات؟ مذكرات السيدة فورد؟"

"كلا، دعني أراجع الاسم" وبعد لحظة صمت "...أدريان فِن"

أدريان! كيف انتهت إلى يد السيدة فورد؟ وهو السؤال الذي ما كان من الممكن توجيهه للمحامية. "كان أحد الأصدقاء" هذا هو كل ما عقبت به. ثم "ربما كانت مُرفقة بالرسالة التي بعثتِ بها إليّ"

"لا يمكنني تأكيد ذلك"

"هل رأيتها بالفعل؟"

"كلا، كان سلوكها حذرًا تمامًا، أكثر منه سلوكًا غير متعاون"

"هل قدَمت فيرونيكا فورد أي تفسير للاحتفاظ بالمذكرات؟"

"قالت إنها ليست مستعدّة للتخلّي عنها الآن"

حسنٌ. "لكنّها لي..."

"كانت بالفعل منصوصة لك في الوصية"

اممم... فكّرت ما إذا كان هناك تدقيق قانوني يفصل بين المسألتين.

"هل تعرفين كيف... توصّلَت إليها؟"

"لم تكن بعيدة عن والدتها في أعوامها الأخيرة، كما فهمت. قالت إنها أخذت عدّة متعلّقات لحمايتها في حوزتها، في حالة ما إذا تعرّض المنزل للسطو: جواهر، ونقود، ووثائق..."

"هل هذا قانوني؟"

"حسنا، هذا ليس غير قانوني. ربما يكون تصرّفًا حكيمًا."

بدا أننا متقاربين "دعني أقُل لكِ ذلك بشكل واضح. كان عليها أن تعطيكِ الوثيقة، تلك المذكرات. أنت طلبتِها وهي رفضت أن تعطيكِ إياها"

"حتى الآن نعم، هذا هو الموقف"

"هل يمكنك أن تعطيني عنوانها؟"

"أستطيع أن أطلب إذنها حتى أفعل ذلك"

"إذن هل يمكنك أن تطلبي إذنها؟"

هل لاحظتَ كيف أنّك حين تُحادث محاميًا، تتوقف بعد فترة عن الكلام بطريقتك وتنتهي للكلام بطريقته هو؟

كلّما قلّ الوقت المُتبقي لك في الحياة، كلّما تضاءلت رغبتك في تبديده على التّفاهات. هذا منطقيّ، أليس كذلك؟ أيا كانت الطريقة التي ستستخدم بها الساعات الأخيرة المتوفرة... حسنًا، ذاك أمرٌ آخر ربما لم تتوقعه في شبابك. على سبيل المثال: أقضي وقتا طويلا في ترتيب البيت، رغم أنّي لست ذلك الشخص الفوضويّ، إلا أنها إحدى الطرق المتواضعة لإرضائك في هذا العمر. أعتني بالنظام، ألقي الأشياء في صندوق القمامة، أنظّف البيت وأزيّنه لأحافظ على قيمته. كتبتُ وصيّتي كذلك، ومعاملاتي مع ابنتي، وزوجها، وأحفادي وطليقتي، وإن لم تكن في صياغتها النهائيّة فهي على الأقل متوازنة. أو هذا ما أقنعتُ نفسي به على الأقل. حقّقت نوعًا من المُسالَمة، أو ربما السّلام. لأنني أتواءم مع الأشياء؛ لا أحبّ الفوضى، ولا أحبّ ترك الأمور في غير نِصابها. أوصيتُ أن تُحرَق جثتي، إن كان يهمّك معرفة ذلك.

هكذا، اتّصلتُ بالسيّدة ماريوت مرّة أخرى، وطلبتُ طريقة للاتصال بابن السيّدة فورد الآخر، المدعوّ جاك. اتصلت بمارغريت ودعوتها للغداء، ورتبت موعدا مع محاميّ الخاص. كلا، أنا أبالغ تماما.

بالتأكيد أخوها جاك لديه شخص ما يمكن أن يُطلق عليه "محاميّ الخاص" أمّا في حالتي فمُحاميّ هو مجرّد موظف محلّي قام بكتابة وصيّتي، لديه مكتب صغير فوق دكّان لبيع الزهور ويبدو كفؤًا تمامًا. يعجبني كذلك أنه لم يحاول إقناعي باستخدام اسمٍ مسيحيّ ولم يقترح عليّ واحدًا، لذلك، أتذكره دائما على أنه ت. ج. جنيل، ولم يخطر على بالي أن أعرف الأسماء التي تشير إليها تلك الحروف. هل تعرف، أنا أخاف أن أصير رجلًا مُسنًّا في المستشفى تُحيط بي ممرّضات لم ألتق بهن من قبل وينادونني "أنتوني"، أو الأسوأ من ذلك، ينادونني "توني، دعني أدمّ ذلك في ذراعك!" و"توني، هل تريد مزيدًا من المهلبيّة؟" و"توني، هل حرّكت ساقيك؟" توني! بطبيعة الحال، قد يحدث ذلك، لكن نزع الكُلفة بيني وبين طاقم التمريض هو أمرٌ يأتي في ذيل قائمة مخاوفي، غير أنّه موجود على أيّ حال.

فعلتُ أمرًا غريبًا –نوعًا ما– عندما التقيت مارغريت أوّل مرّة. أزحتُ فيرونيكا خارج قصّة حياتي، وادّعيت أنّ آني هي أوّل علاقة حقيقية لي. أعرف أن معظم الرجال يبالغون في عدد الفتيات والجنس الذي مارسوه؛ إلا أني فعلت العكس. نزعت سطرًا وبدأت من جديد. كانت مارغريت متحيرة قليلا في ذلك التأخّر، ليس بشأن أوّل تجربة جنسية كاملة، لكنّها أوّل علاقة جادّة. غير أني حسبما تصوّرت وقتها، كانت مفتونة نوعًا ما بذلك. قالت شيئًا ما عن

الخجل وأنّه جذّاب في الرجال.

الجزء الأغرب أنّه كان من السهل أن أروي الحكاية بتلك الصّيغة؛ لأن هذا ما كنت أخبر نفسي به على أي حال. اعتبرت وقتي مع فيرونيكا فشلًا: ازدراؤها، وشعوري بالعار، فمحوتها من القائمة. لم أحتفظ بأيّ رسائل، مجرّد صورة واحدة لم أنظر إليها منذ سنين. لكن بعد عام أو اثنين من الزواج، عندما بدأ شعوري بنفسي يتحسن، وامتلكت الثقة في علاقتنا، أخبرت مارغريت الحقيقة. استمعَت لي، سألَت عدّة أسئلة متعلّقة بالأمر وتفهّمت الموقف. طلبت أن ترى الصورة –تلك التي أخذناها في ميدان ترافلجار– تفحّصَتها، هزّت رأسها ولم تعلّق. كان الأمر لطيفًا، ولم يكن لدي الحق في أن أتوقع أي شيء، دع جانبا كلمات الثّناء على فتاتي السابقة، التي لم أكن أريدها على أيّ حال. أردت أن أتخلص من الماضي فحسب، وأن تغفر لي مارغريت تلك الكذبة الصغيرة، وهو ما فعلَته.

السيد جنيل رجل هادئ، نحيل، لا ينزعج من الصمت الطويل. في النهاية، فهو يكلّف عملاءه من المال ما يُكلّفونه هم من الحديث.

"سيد وبستر"

"سيد جنيل"

هكذا بقينا ننادي بعضنا مدّة خمسة وأربعين دقيقة، أعطاني فيها

النصيحة العمليّة التي كنت أريدها. أخبرني أن الذهاب للشرطة ومحاولة إقناعهم بتقييد شكوى ضد سيّدة في ذاك العُمر فقدت والدتها مؤخّرًا هو أمر من وجهة نظره، أحمق. أعجبني ذلك. ليس النصيحة، لكن طريقة تقديمها. "أحمق" أفضّل كثيرًا من "لا يُنصح به" أو "غير مناسب". طلب مني كذلك ألا ألاحق السيّدة ماريوت.

"ألا يُحبّ المحامون أن يلاحقهم الناس، سيد جنيل؟"

"لنفترض أن الأمر يختلف عندما يكون هذا الذي يلاحقهم هو أحد العميل نفسه، لكن في حالتنا هذه، العميل هو عائلة السيّدة فورد، فهي التي تدفع التكاليف، وستندهش لو عرفت كيف يمكن للرسائل أن تنزلق في قاع الملف فتختفي"

نظرت إلى المكتب حولي ذي الطلاء الكريميّ وأصص الزرع المتناثرة فيه، ورفوف الأحكام القانونية، ومطبوعة مسالمة لخريطة إنجلترا، بالإضافة إلى، نعم، خزائن الملفات. نظرت ثانية إلى السيّد جنيل.

"بعبارة أخرى، ألا أجعلها تظنني مخبولا؟"

"أوه، لن تظن ذلك أبدا، سيد وبستر. كما أن "مخبول" ليس مصطلحا قانونيا تماما"

""ماذا تقولون بدلا من ذلك؟"

"يمكننا أن نستخدم كلمة "كَيدِيّ" هذا قاس بما فيه الكفاية"

"صحيح، ونقطة أخرى. كم يستغرق وقت تصفية التركة؟"

"هذه عملية بسيطة، ليس أكثر من ثمانية عشر شهرا أو عامين"

"عامان؟ لن أنتظر المذكرات تلك الفترة الطويلة"

"حسنا، أنت تبدأ في التعامل مع الموضوع الأساسي، لكن هناك أشياء أخرى تُعطّل المسألة: فقدان شهادات الأنصبة، والتوافق على حجم الدّخل، أو ضياع بعض الخطابات"

"أو انزلاق الرسائل إلى قاع الملف فتختفي..."

"وهذا أيضا، سيد وبستر"

"هل لديك أيّ نصيحة أخرى؟"

"سأكون على حذر من كلمة "سرقة" لأنها ربما تعقّد الأمر دون داع"

"أليس هذا ما فعلَته؟ ذكرني بالشعار القانوني عندما يكون كل شيء واضحا"

"Res ipsa loquitur كما باللاتينية، كل شيء واضح"

"هذا هو"

صمت السيد جنيل قليلا "حسنا، الأعمال الجنائية لا تمرّ عادة بمكتبي، إلا أن العبارة المفتاحية عندما يتعلق الأمر بالسرقة، على ما أذكر هي "نيّة ثابتة لحرمان صاحب الشيء من الشيء المسروق" هل لديك أي دليل على نية السيدة فورد، أو أفكارها بشكل عام؟"

ضحكت. هل لدي فكرة عن أفكار فيرونيكا بشكل عام؟ كانت هذه أحد مشاكلي منذ أربعين عاما مضت. لذا، ربما أكون قد ضحكت بطريقة غير مناسبة، والسيد جنيل ليس رجلا غبيًّا.

"لا أريد أن أتطفّل، سيد وبستر، لكن ربما ثمّة هناك شيء ما في الماضي، حدث بينك وبين الآنسة فورد، قد يقتضي إجراءات مدنيّة أو ربما جنائية؟"

شيء ما بيني وبين الآنسة فورد؟ قفزت صورة معيّنة فجأة إلى ذهني بينما كنت أحدّق في ظهور صورٍ كانت موضوعة على طاولة المحامي وقد بدَت لي صورًا عائليّة.

"لقد جعلت الأمور أوضح، سيد جنيل. سأضع طابع الدرجة الأولى عندما أدفع أتعابك"

ابتسم قائلا "في حقيقة الأمر، هذا شيء نلاحظه في كثير من الحالات"

بعد أسبوعين، تمكّنت السيّدة ماريوت من أن تمنحني البريد الإلكتروني للسيد جاك فورد. رفضت فيرونيكا فورد السماح بإعطاء وسيلة الاتصال الخاصة بها، كما أن جاك فورد كان حذرا كذلك بشكل واضح؛ لا رقم هاتف ولا عنوانًا بريديًا.

تذكرت الأخ جاك جالسا على الأريكة، لا مباليًا وواثقًا من نفسه. كانت فيرونيكا تعبث في شعري وتسأل: "إنّه صالح، أليس كذلك؟" وغمز لي جاك، فلم أغمز له في المقابل.

بعثتُ رسالة حاولتُ أن تكون رسميّة قدر المستطاع، إلى بريده الإلكترونيّ. قدّمتُ تعازيّ. زعمت أن ذكرياتي حول تشيزلهيرست

كانت سعيدة. شرحت الموقف وسألت جاك أن يستخدم تأثيره في إقناع أخته أن تعطيني "الوثيقة" الثانية، التي أعرف أنها مذكّرات صديق الدراسة القديم أدريان فِن.

بعد ما يقرب من عشرة أيام جاء رد الأخ جاك. كان هناك مبرر طويل حول سفره، وشِبه التقاعد، والرطوبة في سنغافورة، وشبكات التواصل اللاسلكية –واي فاي– ومقاهي الإنترنت. ثمّ "على أيّ حال، يكفينا ثرثرة. للأسف أنا لست القيّم على أختي. ولم أكن كذلك قط. بيني وبينك، توقّفت عن محاولة إقناعها بأيّ شيء منذ سنين، وبصراحة، الكلام بشكل جيد عنك يمكن بسهولة أن يكون له تأثير عكسي عليها، وذلك لا ينفي أني أتمنى لك كل التوفيق في هذا الموقف. حسنا، لقد جاءت عربة النقل الهنديةّ، لابدّ أن أنطلق. تحياتي. جون فورد"

لماذا شعرتُ أن هناك شيئا ما غير مقنع في رسالته؟ لماذا تصورته على الفور جالسا بهدوء في منزله، في قصر فخم ما مطلّ على ملعب غولف في ضاحية سوراي، يضحك من رسالتي؟ كان بريده الإلكتروني ينتهي هكذا aol.com@ والذي لم يعن لي أي شيء. نظرت إلى وقت إرسال الرّسالة الإلكترونية فوجدته يصلح لسنغافورة وسوراي على السواء. لماذا تصوّرتُ الأخ جاك متوقّعا مجيئي وأنّه يلهو معي قليلا؟ ربما لأن ظلال الفروق الطبقية في هذه البلد تقاوم الزمن أكثر ممّا تفعل الفروق العمريّة. آل فورد كانوا أكثر أناقة من آل

وبستر وقتها، وكانوا يمضون في مرح حفاظا على ذلك الوضع. أم أنها مجرد عُقدة اضطهاد من جانبي؟

لا شيء يمكن فعله، سوى الرّد بشكل مهذّب طالبًا أن يبعث لي وسيلة اتصال بفيرونيكا.

عندما يقول الناس "إنها تبدو حسنة المظهر" فإنهم يقصدون في الحقيقة أنها "كانت حسنة المظهر" لكني عندما أقول ذلك عن مارغريت فإني أعنيه. هي تظن –تعرف– أنّها تغيّرت، وهذا صحيح، رغم أنه بالنسبة لي تغيير أقل مما حدث للآخرين. بشكل طبيعي، لا يمكنني أن أتحدث عن مدير المطعم، غير أنه يمكنني أن أعبّر عن الأمر بالشكل الآتي: إنها ترى فقط ما فقدَته، بينما أرى أنا ما بقي كما هو. شعرها لم يعد كما كان، ممتدًّا إلى ظهرها أو مطويًّا على الطريقة الفرنسيّة، هو الآن مقصوص قريبًا من مستوى رأسها وقد سمحتْ للّون الرمادي أن يظهر في شعرها. تلك الفساتين القرويّة انسحبت لصالح القمصان المحبوكة والبنطلونات ذات المقاسات الضيقة. ذلك النمش الذي أحببته قديما تحوّل إلى بُقّع شيخوخة، لكن هي العيون التي لا نفتأ ننظر إليها، أليس كذلك؟ حيث عثرنا على الطرف الآخر، وما نزال نجدهم قابعين هناك. العيون ذاتها التي كانت في الرأس ذاته حين التقينا أول مرة، ونمنا معا، وتزوجنا، وقضينا شهر العسل، وتشاركنا دفعَ أقساط المنزل، وذهبنا

للتسوّق، وطبخنا، وقضينا الإجازات، وأحبّ بعضنا البعض، وكان لنا طفل معًا. وكانت هي نفسها حين انفصلنا.

لكن الأمر لا يقتصر على العيون فحسب. التكوين العظمي ما يزال هو ذاته، وكذلك الالتفاتات التلقائيّة، والطّرُق المختلفة التي تكوّن شخصيّتها. وطريقتها، بعد كل هذا الزمن وهذه المسافة، لكونها معي.

"إذن، ما هو الأمر، توني؟"

ضحكتُ. كنّا بالكاد قد نظرنا إلى قائمة الطعام، لكني لم أجد السؤال متعجّلًا. هكذا هي مارغريت. عندما تقول إنك لست واثقًا ما إذا كنتَ تريد طفلًا ثانيًا، فهل تعني أنك لست واثقا من أنك تريد طفلا ثانيًا منّي؟ لماذا تظن أن الطلاق هو توزيع لحصص اللّوم؟ ماذا ستفعل فيما تبقى من حياتك الآن؟ إذا كنت تريد بالفعل قضاء إجازة معي، ألا يحسن بك إذن أن تحجز التذاكر، وما هو الأمر إذن، توني؟

يشعر بعض الناس بالقلق حيال لأشخاص الذين جمعتهم علاقات سابقة بشريك حياتهم، كأنهم ما يزالون يخافونهم. كنت أنا ومارغريت استثناء في هذا الشأن. ليس أنه بالنسبة لي كان هناك طابور من العلاقات السابقة. ولكنها لو أرادت أن تمنح لقبًا لكلّ فتاة جمعتني بها علاقة سابقة، فذاك حقّها، أليس كذلك؟

"في واقع الأمر، من بين كل الناس، الأمر متعلق بفيرونيكا فورد"

"كعكة الفواكه؟" كنت أعرف أنها ستقول ذلك، فلم أجفل.

"هل عادت للحياة بعد كل هذه الأعوام؟ كنت قد عُوفيتَ من ذلك، توني"

"أعلم ذلك" أجبتها. من المحتمل أنّي عندما قررت في النهاية أن أحكي لمارغريت عن فيرونيكا، فقد ضخّمتها قليلا، جعلت نفسي أبدو مغفلا، وفيرونيكا أكثر اضطرابا مما كانت في الحقيقة. لكن بما أن روايتي هي التي خلقت هذا اللقب، فلم يكن بإمكاني الاعتراض عليه. كل ما كان بمقدوري هو ألا استخدمه أنا عن نفسي.

أخبرتها بالحكاية: ماذا فعلت، كيف تعاملت مع الأمور. كما أقول، شيء ما في مارغريت كان له تأثير عليّ على مر السنوات، وهو ما يفسر – ربما – لماذا كانت تهز رأسها موافقة أو تشجيعا في نقاط مختلفة.

"لماذا تظن أن أم كعكة الفواكه تركت لك خمسمائة جنيه استرليني؟"

"ليس لدي أدنى فكرة"

"وتظن أن أخاها يتحاشاك؟"

"نعم، أو على الأقل إنه ليس طبيعيا معي"

"لكنك لا تعرفه إطلاقا، أليس كذلك؟"

"لقد التقيت به مرة واحدة، هذا صحيح. أعتقد أنّي متشكك حيال الأسرة كلها"

"ولماذا تظن أن تلك المذكرات وصلت للأم؟"

"ليس لدي فكرة"

"لعل أدريان تركها لها؛ لأنه لم يكن يثق في كعكة الفواكه"

"ليس لذلك أي معنى"

حل صمت. أكلنا. ثم نقرت مارغريت بسكينتها على طبقي.

"ولو أن الآنسة غير المتزوجة، على ما يبدو، فيرونيكا فورد جاءت إلى هذا المقهى وجلست على طاولتنا، كيف سيتصرف السيد توني وبستر، المُطلّق منذ فترة طويلة؟"

إنها تضع أصبعها دائما على الموضع الصحيح، أليس كذلك؟

"لا أظن أنّي سأكون سعيدا بشكل خاص لرؤيتها"

شيء ما في نبرة صوتي جعل مارغريت تبتسم. "تخدع نفسك؟ تبدأ تشمّر كُمّك وتنزع ساعتك؟"

تضرّج وجهي بالحُمرة. ألم ترَ من قبل رجلًا في الستين يحمّر وجهه خجلا؟ أوه، هذا يحدث، كما يحدث بالضبط للصبي في الخامسة عشرة من عمره بشعره غير المرجّل وحبوب الشّباب؛ ولأنه أكثر ندرة، فإنه يُرسل لحظات الخجل تلك إلى زمنٍ تبدو فيه الحياة وكأنها ليست سوى سلسلة طويلة من الارتباكات.

"ليتني لم أخبرك بذلك"

أخذت شوكة ممتلئة بسلطة الطماطم.

"أنتَ واثق أنه لم تعد هناك... نار مشتعلة في صدرك، سيد وبستر؟"

"واثقٌ تمامًا"

"حسنًا إذن، إذا لم تُحاول الاتصال بك، فاترك الأمر. اصرِف الشّيك، خُذ أموال والدتها التي تركتها لك، واصطحبني في عطلة وانسَ الأمر. مائتان وخمسون جنيهًا لكلّ منّا ستأخذنا إلى جزر القنال"

"ما أزال أحبك حين تسخرين مني، حتى بعد كل تلك الأعوام"

مالت إلى الأمام وربّتت على كفّي "جميل أننا ما نزال مغرمين ببعضنا. وجميل أنّي أعرف أنك لن تحجز لهذه الإجازة أبدا"

"فقط لأنني أعرف أنك لا تعنين ما تقولين"

ابتسمت، وللحظة، بدت غامضة. لكن مارغريت لا يمكنها أن تكون لغزا. الخطوة الأولى نحو "المرأة الغامضة" لو كانت تريدني أن أنفق المال لقضاء تلك العطلة، لقالت نعم، إنّي أدرك تماما الذي قد قالته، لكن...

لكن على أي حال "لقد سرَقت شيئا يخصني" قلتُ، ربما بنبرة منتحبة.

"كيف تعرف أنك تريدها؟"

"إنها مذكرات أدريان. إنه صديقي. كان صديقي. إنها تخصني"

"لو كان صديقك يريد أن يعطيك تلك المذكرات، لكان تركها لك منذ أربعين سنة، دون وسيط، أو وسيطة"

"نعم"

"ماذا تظن أنها تحوي؟"

"ليس لديّ أدنى فكرة. إنها تخصني فحسب." أدركت في تلك اللحظة سببا آخر لإصراري هذا. كانت تلك المذكرات دليلا؛ ربما كانت لتؤكد ظنونا لديّ. ربما كانت لتعطّل التّكرار المبتذل للذاكرة. ربما كانت لتبدأ من جديدٍ شيئًا ما، رغم أنه لم تكن لديّ أدنى فكرة عن طبيعة ذاك الشيء.

"حسنا، يمكنك بسهولة أن تعثر على مكان سكن كعكة الفواكه من خلال شبكات تجمّع الأصدقاء القدامى، ودليل الهاتف، أو حتى مُخبر سرّي. اذهب وابحث، اقرع جرس الباب، واطلب ما يخصك"

"كلا"

"ما زال أمامنا حلّ السرقة" اقترحَت مبتهجة.

"إنك تمزحين!"

"إذن فلتنس الأمر. ما لم تكن هناك أمور في الماضي، كما يقولون، أنت بحاجة لمواجهتها كي تكون قادرًا على مواصلة حياتك. لكنك لست من هذا النوع، أليس كذلك يا توني؟"

"لا، لا أظن ذلك" أجبت، بحذر، لأن جانبا منّي كان يتساءل إذا كان ما تقوله ليس صحيحا على المستوى النفسيّ. حلّ الصمت. كانت أطباقنا قد فرغت. لم يكن لدى مارغريت أي مشكلة في قراءتي.

"إنه لأمر مؤثر أن تكون عنيدا لهذه الدرجة. أظن أنه أحد أساليب الحفاظ على عنصر التّشويق حين تصل لعمر مثل عمرنا"

"لا أظن أن رد فعلي كان ليختلف قبل عشرين عامًا"

"ربما لا" وقّعَت على الفاتورة. "لكن دعني أخبرك أمرًا عن كارولين. لا، أنت لا تعرفها. لقد صرنا صديقتين بعد انفصالي عنك. كان لديها زوج، ومُربية. ولم تساورها أيّ شكوك مريعة تجاه تلك المُربية. كانت الفتاة مهذبة معظم الوقت، لم يشتكِ الأطفال منها. لكن كانت كارولين تشعر أنها لا تعرف مع من بالضبط تترك أطفالها. لذا سألت صديقة –كلا، ليست أنا– إن كان لديها ما تنصح به. "فتّشي أشياءها" قالت الصديقة. "ماذا؟" "حسنًا أنت بالفعل على وشك ذلك. انتظري حتى يجئ موعد ذهابها، وألقِ نظرة على غرفتها، اقرئي رسائلها. هذا ما كنت سأفعلُه" وهكذا، في المرة التالية غادرَت المربية، وفتّشت كارولين أشياءها وعثرت على مذكراتها، التي قرأتها لتجدها مليئة بالأشياء المستنكرة، مثل "إنني أعمل لدى بقرة حقيقية" و" الزّوج لا بأس به –ضبطتُه ينظر إلى مؤخّرتي– إلا أن الزوجة عاهرة سخيفة" و"هل تُدرك ما الذي تفعله بهؤلاء الأطفال المساكين؟" كان هناك كثير من الأشياء المزعجة فعلا، فعلا."

"وماذا حدث بعد ذلك؟" سألت. "هل طردت المربية؟"

"توني" أجابت طليقتي. "ليس هذا هو الغرض من الحكاية"

أومأت برأسي. أكملَت توقيع الفاتورة، ودفعت بطاقتها الائتمانية. ثمة ملاحظتان قالتهما عبر السنين: إن هناك بعض النساء لسن غامضات على الإطلاق، لكن ما يجعلهن كذلك هو عدم قدرة الرجال على فهمهن. وأن كعكة الفواكه، من وجهة نظرها، يجب

أن تكون مَلِكَة هذا النوع من النساء. لابدّ أنّي أخبرتها عن تلك التفاصيل من حياتي في بريستول بطبيعة الحال.

مرّ أسبوع تقريبا، ثم ظهر اسم الأخ جاك في بريدي الإلكتروني ثانية. "ها هو عنوان بريد فيرونيكا الإلكتروني، لكن لا تدعها تعرف أنك حصلت عليه من خلالي. لا أريد أن تقع لي مشكلة أو ما شابه. تذكّر حكمة القرود الثلاثة: لا أرى، لا أسمع، لا أتكلم. هذا هو شعاري. السماء زرقاء، وأمامي جسر سيدني. ها هي العربة قد جاءت كي تقلّني. تحياتي. جون ف."

كنت مُندهشًا. لم أتوقع المساعدة. لكن ما الذي كنت أعرف عنه أو عن حياته؟ لا شيء غير الاستنتاج بناءً على ذاكرتي وما استدعَتْه من تلك العطلة السيّئة القديمة. كنت أفترض دائما أن نشأته وتعليمه قد منحاه مزيّة عني والتي استطاع أن يحافظ عليها دون مجهود حتى اللحظة الحاضرة. أتذكر أن أدريان قال إنه قد قرأ عن جاك في أحد مجلات الطلبة في الجامعة لكنه لم يتوقع أن يكون قد التقى به (إلا أنه لم يتوقع كذلك أن يرتبط بفيرونيكا) ثم أنه قد أضاف بطريقة فظة "أكره عدم جدية الإنجليز في التعامل مع الجديّة. أكرهها فعلاً" لم أعرف أبدا –لأنني لم اسأل أبدا بسبب غبائي– ماذا كان المقصود بذلك.

يقولون إنّ الزّمن يتكفّل بالمرء، أليس كذلك؟ لعلّ الزمن عثر

على الأخ جاك وعاقبه على نقص جديّته، وها أنا ذا أبدأ الآن في تخيّل حياة مختلفة تخصّ أخي فيرونيكا: حياة لا تلمع فيها سوى سنوات دراسته الجامعيّة في ذاكرته مُترعة بالبهجة والأمل، كأنها الفترة الوحيدة التي تحقّق له فيها الانسجام الذي نسعى جميعًا إليه. تخيّلتُ جاك بعد التخرج، وقد حصل، عن طريق الواسطة، على وظيفة في إحدى الشركات الكُبرى العالمية متعدّدة الجنسيّات. تخيلته يعمل بكفاءة في البداية، ثم بالتدريج يبدأ أداؤه يسوء. إنّه زميلٌ اجتماعيٌّ مهذّب لكن يعوزه التأقلم مع متغيّرات العالم. إنّ تلك الملاحظات المرحة التي ختم بها رسائله الإلكترونية إليّ، أدركتُ بعد فترة أنها لا تدلّ على البراعة، بل أنّه غير كُفء. رغم أنه لم يلمّح إلى أسلوب حياته بوضوح، فإنني أظن أنّه دُفِعَ دفعًا لنيل فُرصةٍ للتقاعد المبكّر مع الالتزام الحُرّ بتخليص بعض الأعمال هنا وهناك، أو أن يكون مستشارًا فخريًا متنقّلًا، أو رادفًا للمسؤولين الكبار في المدن النّشيطة، أو خبيرًا لحلّ الأزمات في قرية صغيرة. هكذا أعاد صياغة حياته، ووجد طريقة ما معقولة ليقدم نفسه باعتباره ناجحًا "مشهد جسر سيدني". تخيّلته وهو يأخذ اللاب-توب الخاص به إلى أحد المقاهي ذات شبكة الاتصال المفتوح بالإنترنت؛ لأن ذلك كان، بصراحة، أقلّ إثارة للكآبة من العمل في غرفة فندق عدد نجومه أقل ممّا اعتاد عليه قبل التقاعد.

لا أعرف إن كانت الشركات العملاقة تعمل بتلك الطريقة أم

لا، لكني وجدت طريقة للتفكير في جاك بحيث لا يصيبني ذِكْرُهُ بالضّيق. لقد انتزعته حتى من ذلك القصر المهيب المطل الذي تخيّلت أنه يسكنه مطلًّا على ملاعب الغولف. لم أذهب بعيدا بحيث أشعر نحوه بالشفقة، ولا –وهذا هو المهم– أن أشعر أني مدين له بشيء.

"عزيزتي فيرونيكا" هكذا بدأتُ "لقد منحني أخوك مشكورًا عنوان بريدك الإلكتروني..."

يدهشني أنّ ذلك ربما يكون أحد الاختلافات المهمة بين الشباب والشيخوخة؛ في شبابنا نخترع مستقبلا مختلفا لأنفسنا، أمّا في شيخوختنا فإننا نخترع لنا ماضيًا مختلفًا.

كان والدها يقود سيارة الهمبر سوبر سناين. لم تعد السيارات الآن تحمل أسماء من ذاك النوع. أليس كذلك؟ لديّ الآن سيارة فولكسواغن بولو. الهمبر سوبر سناين... اسمُ السيّارة تنزلق كلماته على اللسان بسهولة، سهولة انزلاق "الأب والابن والروح القدس". الهمبر سوبر سناين. آرمسترونغ سيدلي سافِر. جوّيت جافلين. جنسن انترسبتر، بل حتى وولسلي فارينا، وهيلمان مينكس.

لا تأخذ تصوّرًا خاطئًا عني، لست مهتما بالسيارات، القديمة أو الجديدة. يصيبني فضول غامض لمعرفة لماذا يُطلقون على سيارة

صالون عريضة اسم طائر زينة صغير مثل سنايب (Snipe) وما إذا كانت السيارة الميكس ذات طبيعة أنثوية متقلبة؟ رغم ذلك، ليس فضولي قويا بالدرجة الكافية كي أعرف إجابات تلك الأسئلة. في هذه المرحلة من العمر، أفضّل ألّا أعرف.

لكني أقلّب في ذهني سؤال النوستالجيا (الحنين)، وما إذا كنت أعاني من ذلك الحنين للماضي. بالتأكيد لا تغرورق عيني بالدمع عند تذكر مشاجرة ما أيّاك الطفولة، ولا أريد أن أخدع نفسي عاطفيًّا حول شيء ما لم يكن صحيحًا وقتها: قصص الحبّ المدرسيّة وما إلى ذلك. لكن إن كانت النوستالجيا تعني تذكّر العواطف الجيّاشة، والندم أن هذه المشاعر لم تعد موجودة الآن في حياتنا، فأنا ألتمس اعتباري مُذنبًا إذن. أشعر بالحنين لأيامي الأولى مع مارغريت، ويوم ميلاد سوزي وأعوامنا الأولى، ورحلة الطريق مع آني. وإذا كنا نتحدث عن المشاعر القوية التي لن تعود ثانية، فمن الممكن أن تصاب بالحنين لألم تتذكّره كما تتذكّر لحظات البهجة، وهو ما يجعل المجال مفتوحا، أليس كذلك؟ هذا يقودنا بشكل مباشر إلى مشكلة الآنسة فيرونيكا فورد.

"النقود الدموية؟"

نظرتُ إلى الكلمات ولم أفهم شيئا. لقد مَحَت رسالتي وعنوانها، ولم تُوقّع الرّد، واكتفت بإرسال تلك العبارة. كان عليّ أن أستعيد

رسالتي وأقرؤها ثانية لأفهم أن ردّها -لغويًا- هو عن سؤالي لماذا تركَت والدتها خمسمائة جنيه إسترليني؟ لكن هذا لم يكن له أيّ معنى، فلم يكن هناك دم في الأمر. ربما أن كرامتي قد جُرحت، هذا صحيح. لكن هل تعني فيرونيكا أن أمها قدّمت لي ذاك المال مقابل الألم الذي سبّبَته لي، هل هذا ما تعنيه؟ هل هذا ما حدث؟

في الوقت ذاته، بدا مفهوما أن فيرونيكا لم تمنحني جوابا بسيطا، وأنها لم تقل أو تفعل ما كنتُ أتوقعه أو أنتظره. كان هذا -على الأقل- مُتّسقًا مع ذكرياتي عنها. كنت بطبيعة الحال في بعض الأحيان مدفوعًا لاعتبارها امرأة غامضة، في نقيض امرأة الوضوح التي تزوّجتها: مارغريت. صحيح، لم أعرف قط موقعي في حياتها، لم أقدر على قراءة قلبها أو عقلها ودوافعها. غير أن اللغز هو متاهة يستهويك حلّها. لم أرد أن أحلّ لغز فيرونيكا، خاصّة في هذه المرحلة المتأخرة من العمر، لقد كانت صبيّة مُراهقة ولعينة منذ أربعين عامًا مضت -وهذا الرد الذي لا يتجاوز كلمتين- يؤكّد أنها لم تتغير بفعل الزمن. هذا ما قلتُه لنفسي بوضوح.

إلّا أنه لماذا نفترض من الزمن أن يغيّرنا؟ فإذا لم يكن من شأن الحياة أن تكافئنا، فلماذا يكون من شأنها أن تمنحنا مشاعر دافئة وطيبة في ختام رحلتها؟ أيّ تطوّر يمكن للنوستالجيا أن تمنحنا؟

كان لدي صديق تدرّب ليصير محاميًا ثم ما لبث أن فقد اهتمامه

ولم يمارس المهنة أبدا. أخبرني أن الميزة الوحيدة لتلك الأعوام الضائعة هي أنه ما عاد يخاف المحاماة ولا المحامين. شيء مثل هذا يحدث بشكل عام، أليس كذلك. كلما تعلمت أكثر كلّما قلّت مخاوفك. التعلم ليس بوصفه دراسة أكاديمية، بل فهمًا عمليًّا للحياة.

ربما كل ما أريد قوله في الحقيقة هو أنّه لم ينتُج عن علاقتي بفيرونيكا سوى أنّي لم أعد خائفا منها الآن. وهكذا بدأتُ حملتي على البريد الإلكتروني. قررت أن أكون مهذّبًا، غير مُسيء، مثابرًا، مملًّا، وَدودًا. بعبارة أخرى، أن أكذب. بالطبع، يستغرق الأمر ثانية حتى تمحو رسالة بريد إلكتروني، لكنها لا تستغرق وقتًا أطول بكثير لتحلّ رسالة أخرى محلها. سأصيبها بالضجر من تلطّفي، وسأحصل على مذكّرات أدريان. لم تكن هناك "نار لم تنطفئ في صدري" وقد أكّدتُ لمارغريت ذلك. ووفقا لنصيحتها الأكثر عمومية، لنقل إن إحدى مميّزات كونك مُطلّقًا هو أنه لم تعد بك حاجة لتبرير تصرفاتك، ولا أن تمتثل للاقتراحات.

يمكنني القول إن فيرونيكا كانت مرتبكة بسبب اقترابي منها. أحيانا كانت تجيب باختصار وقطعيّة، وأحيانا لا تجيب على الإطلاق. ولن تشعر بالتملق لكونها تعرف خطّتي المسبقة. في نهاية زواجي، كانت الفيلا المتماسكة التي عشت فيها أنا ومارغريت –والواقعة في أحد

الضواحي– تعاني من تخلخل بسيط، بدأت التشققات تظهر هنا وهناك، وأخذت الشرفة والجدار الأمامي في التقوّض (كلا، لم أفكر في الأمر بصورة رمزية) تجاهلَت شركة التأمين حقيقة أن الصّيف كان جافًّا جدًّا فوجّهت اللوم إلى شجرة الزيزفون في حديقتنا. لم تكن شجرة ذات طابع خاص، ولم أكن مفتونا بها دون غيرها، لعدة أسباب: أنها كانت تحجب الضوء عن الغرفة الأمامية، وكان يتساقط منها مواد صمغية على الرصيف، وكانت تعترض الشارع بطريقة شجعت الحمام على استيطانها فراحت تلوّث السيارات من تحتها، لا سيّما سيارتنا.

كان اعتراضي على قطعها مبنيّا على مبدأ: ليس مبدأ الحفاظ على ثروة البلاد من الأشجار، لكن مبدأ عدم الخضوع للبيروقراطيين غير المرئيين، المهذبين ذوي الوجوه الطفولية، ونظريات الموضة الرائجة التي تستخدمها شركات التأمين. مارجيت كذلك كانت تحب تلك الشجرة؛ وهكذا أعددت حملة دفاعية طويلة. استفسرتُ عن النتائج التي توصل إليها المتخصصون في تشذيب الأشجار وطالبت بالمزيد من الفحص لتوكيد أو نفي وجود جذور قريبة من أساس البيت، جادلت بشأن طبيعة الجو، حزام لندن الطيني الكبير، فرض قانون منع الأنابيب على مدى متسع وما إلى ذلك. كنت مهذبا بشكل صارم؛ قلدت لغة خصومي البيروقراطيين. ألحقت

– بسخافة – صور من مراسلات سابقة مع كل رسالة؛ دعوتهم للمزيد من الفحص واقترحت استخداما أكبر للأيدي العاملة. مع كل خطاب، كنت أفلحُ في العثور على استفسار آخر ينفقون وقتهم في الإجابة عليه، ولو لم يفعلوا، فإن الخطاب التالي، وبدلا من تكرار الاستفسار، يحيلهم إلى الفقرة الرابعة أو الثالثة في مراسلاتنا يوم 17، ويكون لزاما عليهم – حينئذ – البحث في ذاك المغلّف المتضخم باستمرار. كنت حريصا ألا أبدو معتوها، لكن بالأحرى مملا، دقيقا، مهووسا بالتفاصيل. كان يطيب لي أن أتصور تأوّهاتهم وأنينهم مع وصول كل خطاب من خطاباتي؛ وكنت أدرك أنه في لحظة ما سيسعون لإغلاق هذا المغلّف بأي ثمن. وفعلا، وبطريقة منفعلة، عرضوا تقليص ثلث مساحة عريشة شجرة الزيزفون، وهو الحل الذي تقبلته مُبديًا أعمق مشاعر الندم، مخفيا ابتهاجي.

فيرونيكا، كما توقّعت، لم تكن لتستمتع بأن تتم معاملتها كشركة تأمين. سأوفّر عليك ملل رسائلنا المتبادلة وأنتقل لأول خطوة عملية؛ تلقيت رسالة من السيدة ماريوت متضمنة ما وصفته بأنه "مجتزأ من الوثيقة محل النزاع" وعبّرت عن أملها بأن تشهد الشهور التالية استعادتي للتركة بالكامل. اعتبرتُ ذلك إفراطا في التفاؤل من جانبها.

كان "المجتزأ" عبارة عن صورة ضوئية. لكن –حتى بعد أربعين عامًا–

كنتُ أعرف أنه صورة من نسخة أصليّة. كان أدريان يكتب بطريقة مائلة مميزة ويكتب حرف "g" بشكل غريب. ليس هناك حاجة للقول إن فيرونيكا لم ترسل لي الصفحة الأولى، أو الأخيرة، ولم تحدد أين بالضبط وردت هذه الصفحات المجتزأة في دفتر المذكرات. إذا كانت المذكرات هي اللفظ الصحيح لوصف النص المكتوب في فقرات مُرقّمة. هذا ما كنت أقرؤه:

5,4 حول سؤال التراكم. إن كانت الحياة لُعبة قمار، فما هو شكل الرّهان؟ ففي مضمار السباق مثلًا، التراكم هو إضافة أرباح حصان فائز فوق رِهان الحصان التالي.

5,5 إذن أ) إلى أي درجة يمكن التعبير عن العلاقات العاطفية بمصطلحات رياضيّة أو منطقية؟ وإن كان الأمر كذلك، ب) أي العلامات يمكن إحلالها بين الأعداد؟ الزائد والناقص، كما هو مُبرهن، أحيانا الضرب ونعم، القسمة. إلا أن هذه العلامات محدودة. وهكذا فإن علاقة فاشلة بالكامل يمكن التعبير عنها بمصطلحات كلّ من الخسارة/الناقص أو الانخفاض/القسمة ليكون المجموع صفرا. بينما علاقة ناجحة تماما يمكن التعبير عنها بالإضافة والضرب. لكن ماذا عن معظم العلاقات العاطفية؟ هل هي بحاجة لرموز غير محتملة منطقيا وغير قابلة للحل رياضيا؟

5,6 وهكذا يمكن التعبير عن تراكم يتضمن الأعداد: ف، س، ط، أ^{1}، أ^{2}

أ^{1} $\overset{+}{x}$ ف - س = ط

أو

ط = س x أ^{1} + ف + أ^{2}

5,7 أم أن هذه هي الطريقة الخاطئة لطرح السؤال والتعبير عن التراكم؟ هل تطبيق المنطق على الحالة الإنسانية هو أمر محكوم عليه بالفشل مسبقا؟ كيف تتشكل سلسلة الجدل عندما تكون المفاصل بينها من معادن مختلفة، لكل منها صلابة مختلفة؟

5,8 أم أن "المفاصل" استعارة خاطئة؟

5,9 لكن إن افترضنا صحة الاستعارة، إذا ما انكسر "المفصل" فعلى عاتق من تقع مسؤولية الكسر؟ على المفصل من الجانبين أم على السلسلة بكاملها؟ لكن ما الذي نعنيه "بالسلسلة بكاملها"؟ إلى أاين تمتد المسؤولية؟

5,10 أم أنّ محاولة تضييق نطاق المسؤولية هو الأكثر دقة، وليس استخدام المعادلات والأعداد، لكن بدلا من ذلك التعبير عن الأمور باستخدام مصطلحات السرد التقليدي. إذن، على سبيل المثال، لو كان توني...

وهنا تتوقف الصورة الضوئية – النسخة عن النسخة. "إذن، على سبيل المثال، لو كان توني..." نهاية السطر، آخر الصفحة. لو أنّي لم أتعرف فورا على خط أدريان، لربما كنت تصورت أن هذه الخاتمة المشوقة هي لعبة تم تزييفها من قِبَل فيرونيكا.

لكني كنت أريد ألا أفكر فيها، طالما أمكنني تجنب ذلك. فحاولت التركيز على أدريان وما الذي كان يفعله. لا أعرف كيف يمكن التعبير عن ذلك، لكني بينما أنظر إلى الصّورة الضوئية لم أشعر أني أنظر إلى وثيقة تاريخية، إلى أوراق بحاجة إلى مزيد من التفسير. كلا، شعرت أن أدريان موجود في الغرفة المجاورة، قريبًا منّي، يتنفس، ويفكر.

وكم ظل مثيرا للإعجاب! أحيانا ما كنت أحاول تخيل الإحباط الذي يؤدي للانتحار، أو أحاول تمثّل المنزلقات والمستنقعات المظلمة التي يبدو فيها الموت هو فُرجة الضّياء الضيّقة: بعبارة أخرى، النقيض التام للوضع الطبيعي للحياة. لكن في هذه الوثيقة، التي اعتمدتُ عليها، بناء على هذه الصفحة الوحيدة، لفهم منطق أدريان إزاء انتحاره –فقد كانت نسخة ضوئيّة تحاول الوصول إلى ضوء أكبر– هل يبدو ذلك واضحًا؟

أنا واثق أن الأخصائيين النفسيين رسموا في مكان ما رسمًا بيانيًّا يوضح علاقة الذكاء قياسًا إلى العمر. ليس رسما بيانيا للحكمة،

أو النفعية، أو المهارات التنظيمية، أو العقل المُخطِّط –تلك الأشياء التي، بمرور الزمن تطغى على إدراكنا للأمور– لكن رسمًا بيانيًا للذكاء الخالص، وحسب تخميني فإني أتصور أننا نصل إلى قمّة ذكائنا بين سن السادسة عشرة والخامسة والعشرين. ذلك المجتزأ من مذكرات أدريان ذكّرني كيف كان في تلك السن. عندما كنا نتحادث ونتجادل، كان يبدو وكأن ترتيب الأفكار هو أمر أصيل فيه، كأن استخدامه لعقله هو أمر طبيعي مثل استخدام اللّاعب الرياضيّ عضلاته. وتماما مثلما يكون رد فعل اللّاعبين الرياضيّين على انتصارهم بمزيج من الفخر وعدم التصديق والتواضع، أنا فعلت ذلك، حقًا! كيف فعلتُ ذلك؟ بنفسي؟ بفضل الآخرين؟ أم هل فعله الله لي؟ هكذا كان أدريان يأخذك في رحلة عبر أفكاره كأنه هو نفسه لم يكن يصدق السهولة التي يرتحل بها. كان قد وصل إلى حالة من التسامي، لكنها حالة لا تستبعد الآخرين عن حياته. كان يجعلك تشعر أنك مُعاونه في التفكير، حتى وإن لم تقل شيئا. وكان غريبا أن أشعر بذلك ثانية، تلك الصحبة مع شخص هو الآن ميت لكنه ما يزال أكثر ذكاء، رغم كل العقود التي أتقدمه بها في العمر.

ليس الذكاء الخالص فحسب، لكن الذكاء التطبيقي كذلك. وجدت نفسي أقارن حياة أدريان بحياتي. قدرته على أن يرى ويختبر نفسه، القدرة على اتخاذ قرارات أخلاقية وتنفيذها، الشجاعة الذهنية والجسدية لانتحاره "قضى على حياته" كما تقول العبارة، لكنّه

أيضًا كان مسؤولًا عن حياته، سيطرَ عليها، أخذ بزمامها، ثم تخلّى عن كل ذلك. كم واحدًا منّا –نحن الباقين– يمكنه أن يقول إنه فعل الشيء نفسه؟ إننا نخوض في الوحل، نترك الحياة تفعل فينا ما تشاء، نبني بالتدريج خزائنًا من الذكريات. هذا هو سؤال التراكم، لكن ليس كما عناه أدريان، مجرّد زوائد في الحياة وعليها. وكما أشار الشاعر، هناك فارق بين الزيادة والتّنمية.

هل نمّيتُ من حياتي، أم أنها كانت مجرّد زوائد؟ ذاك هو سؤال وثيقة أدريان بالنسبة لي. كانت هناك زيادة (+) –وطَرح (-)– في حياتي، لكن كم من الضرب (x)؟ ومنحني ذلك شعورا بالقلق وعدم الارتياح.

"إذن، على سبيل المثال، لو كان توني ..." هذه الكلمات لها معنى محدد ونصّي، له علاقة بأربعين عاما مضت؛ وربما عند نقطة ما سأكتشف أن تلك المذكرات احتوت، أو أوصلت لي توبيخًا أو نقدًا من صديقي ذي الرؤية الصافية، صديقي القادر على رؤية نفسه. لكني في لحظة ما سمعت كلماته ضمن مرجعية أكثر اتساعا: حياتي كلها. "إذن، على سبيل المثال، لو كان توني ..." وفي هذا السياق كانت الكلمات مكتملة بشكل عملي في ذاتها ولم تكن بحاجة لفقرات شارحة بعدها. صحيح فعلا، لو كان توني أبصر بمزيدٍ من الصفاء، وتصرّف بشكل أكثر حسما، لو تمسّك بالقيم الأخلاقية الأكثر صدقا، لكان وصل إلى الاستقرار والسّلام السّلبيّ الذي أطلقتُ عليه

في البداية "مُسالمة" ثم لاحقًا "رِضًا". لو كان توني أقل خوفا، لو لم يعتمد على استحسان الناس لاستحسانه لنفسه... وهكذا، بعد مُتتالية من الافتراضات النظرية وصلت لافتراض نهائي "إذن، على سبيل المثال، لو أن توني ما كان توني..."

لكن توني كان وسيبقى توني، رجلًا وجد الراحة في إصراره. الخطابات لشركة التأمين، ورسائل البريد الإلكتروني لفيرونيكا. إذا قررت أن تزعجني فسأزعجك في المقابل. واصلتُ إرسال الرسائل إليها بمعدل يوم بعد يوم تقريبا، والآن باستخدام نبرات مختلفة، من التحذيرات المضحكة إلى "تصرّفي بشكل سليم يا فتاة!" للسؤال عن جُملة أدريان غير المكتملة، إلى تساؤلات نصف مُخلِصة عن حياتها الخاصة. أردتها أن تشعر أنّي قد أكون في الانتظار وقتما تضغط على بريدها الإلكتروني؛ وأن تعرف أنها حتى وإن مسحت رسائلي بشكل فوري، فإنني واعٍ تماما أنها تفعل ذلك، دون أن أكون مندهشا، أو متألّمًا بالطبع. وأنني هناك، أنتظر. لم أشعر إطلاقا أنّي اضايقها. كنت أبحث فحسب عما يخصني. وهكذا، ذات صباح، حصلت على النتيجة.

"أنا قادمة إلى البلدة غدًا. سألتقيك في الثالثة ظُهرًا عند منتصف جسر ووبلي"

لم أتوقع ذلك أبدا. ظننت أنّ كل شيء سيتم إنجازه عن بُعد. كان

أسلوبها هو أسلوب الوكلاء أو التزام الصّمت. لعلها غيرت رأيها، أو لعلي نجحت في اختراقها، فقد كنت أحاول، رغم كل شيء.

جسر ووبلي، هو جسر جديد للمشاة على نهر التايمز يمتدّ بين كاتدرائية القدّيس بولس ومتحف تيت مودرن. في البداية كان يهتز قليلا بسبب الريح أو أقدام المشاة، أو للسببين معًا، وكان المعلّقون البريطانيون يسخرون من المهندسين المعماريين لأنهم لا يعرفون ما يفعلونه. كنت أراه جميلا، وكنت أحب الطريقة التي يرتعش بها. بدا لي أننا بحاجة أن نتذكر من وقت لآخر أن الأرض ليست ثابتة دائما تحت أقدامنا. ثم ما لبثوا أن أصلحوه فتوقف عن الارتعاش، غير أن الاسم "ووبلي"[11] ظل ملتصقا به، على الأقل إلى وقتنا هذا. تساءلت عن اختيار فيرونيكا لهذا المكان. وأيضا ما إذا كانت ستبقيني منتظرًا، ومن أيّ جهة ستأتي.

لكنها كانت هناك بالفعل. تعرفت عليها رغم المسافة، كان طولها ووقفتها أليفَين. غريب كيف تبقى دوما صورة وقفة شخص ما في ذهن المرء. وفي حالتها –كيف يمكنني التعبير عن ذلك؟ هل يمكنك أن تقف في قلق؟ لا أعني أنها كانت تقفز من قدم لأخرى، لكنّ توتُّرًا واضحًا كان يقول إنها لا تريد أن تكون هناك.

نظرت إلى ساعتي. كنت في موعدي بالضبط. نظرنا إلى بعضنا.

"لقد فقدتَ شعرك" قالت.

---

(11) من Wobble بمعنى يرتعش.

"هذا يحدث، وهو يؤكد على الأقل أنّي لست مدمنا للخمر"

"لم أقل إنك مدمن. هل تفضّل الجلوس على أحد تلك المقاعد؟"

توجّهت نحو المقاعد دون أن تنتظر إجابتي، تسير بسرعة لابدّ لي معها أن أعدو بضع خطوات إذا أردت السّير جوارها، لكنّي لم أرغب أن أمنحها تلك المُتعة، فتأخّرت عنها عدّة خطوات حتى وصلنا مقعدًا شاغرًا يواجه نهر التايمز. لم أعرف في أي اتّجاه يجري التيّار، فثمّة ريحٌ قويّة تُعاكسه فتُثير مياهه، وكانت السماء فوقنا رماديّة. وكان هناك قلة من السياح؛ وكان المتزلّجون بأحذية العجلات يندفعون وراءنا.

"لماذا يظن الناس أنك مدمن للكحول"

"إنهم لا يظنون ذلك"

"لماذا أثرت الموضوع إذن؟"

"أنا لم أثر الموضوع. أنت قلت إنّي لم أفقد شعري، يكاد يكون معروفا أنك إذا كنت تسرف في تعاطي الكحول فإن شيئا ما في الخمر يمنع شعرك من التساقط"

"هل هذا صحيح؟"

"حسنا، هل تعرفين أصلع مدمنا للكحول؟"

"لدي أشياء أفضل أشغل بها وقتي"

نظرت نحوها وفكرت: أنت لم تتغيري، لكني تغيرت. وفي النهاية، بشكل غريب، أجد تلك الألاعيب الحوارية تجعلني أشعر بالحنين.

وفي الوقت ذاته، غالبا، فكرت: بدت كأنّها قد أهملت نفسها طويلًا: كانت ترتدي تنورة عاديّة من قماش التويد السميك ومعطفًا أزرق رثًّا، وشعرها المتروك لنسيم النّهر غير مصفّف. كان بطوله نفسه منذ أربعين عاما، لكن الخطوط الرمادية اقتحمته بكثافة، أو بالأحرى كان رماديا تقتحمه الخطوط البنّية – لونه الأصلي. كانت مارغريت دائما تقول إن النساء يرتكبن دوما غلطة الاحتفاظ بتسريحة شعرهن وقت أن كنّ بالغات الجاذبية. يتمسكن بها حتى بعد أن تصبح غير ملائمة، كل ذلك خوفا من تغيير تلك التسريحة. بدا أن هذا الكلام مناسبا لفيرونيكا، أو ربما هي لا تأبه للأمر فحسب...

"إذن؟" قالت.

"إذن؟" كررت.

"لقد طلبت أن نلتقي"

"هل فعلت؟"

"تعني أنك لم تفعل؟"

"إن كنت تقولين أنّي فعلت، فلابدّ أنّي فعلت"

"حسنا، هل هذه نعم أم لا؟" سألت، وقد وقفت، نعم، بانعدام صبر.

لم يصدر عني، متعمدا، أي رد فعل. لم أقترح أن تجلس، ولم أقف أنا. كان بإمكانها أن تنصرف، ولم تكن هناك فائدة إذن من منعها.

راحت تحدّق في النهر. كانت تحمل ثلاث شامات سوداء على عنقها – هل تراني أتذكرهم أم لا؟ كل منها الآن، يتدلى منها خط طولي، فيما يقبض الضوء على تلك الشعيرات الممتدة منها.

حسنا إذن، لا حوار قصير، لا تاريخ، لا حنين إلى الماضي. إلى العمل.

"هل ستعطيني مذكرات أدريان؟"

"لا أستطيع" أجابت دون أن تنظر إليّ.

"لم لا؟"

"أحرقتُها"

في البداية سرقة، ثم إتلاف ممتلكات الآخرين، فكّرت وأنا انفجر من الغضب، لكني قلت لنفسي أن استمر في التعامل معها كأنها شركة تأمين. وهكذا، بقدر ما أمكنني أن أكون طبيعيا، سألتها بتجرّد: "وما السبب؟"

ارتعش خدها، ولم أستطع أن أحدّد ما إذا كانت تبتسم أم تعبس.

"لا ينبغي للناس أن يقرؤوا مذكرات الآخرين"

"لابدّ أن والدتك قرأتها، ولابد أنك أنت أيضا قرأتها، كي تقرّري أي صفحة ترسلينها لي"

لا إجابة.

جرّبتُ طريقة أخرى "بالمناسبة، كيف استمرت تلك الجملة؟ أنت تعرفينها: إذن، على سبيل المثال، لو كان توني...؟"

هزّت كتفيها وقطّبَت "لا ينبغي للناس أن يقرؤوا مذكرات الآخرين"

كرّرت. ثم قالت "لكن يمكنك أن تقرأ هذا لو أحببت"

سحبت مغلّفًا من جيب معطفها، ناولته لي، ثم استدارت وانصرفت بعيدا.

حين وصلت البيت، تفحّصت رسائل بريدي الإلكتروني، وبالطبع لم أطلب أبدا أن نلتقي. حسنا، ليس باستخدام كثير من الكلمات، على أي حال.

تذكرت رد فعلي التلقائي عند رؤية عبارة "نقود دموية" على شاشتي. قلت لنفسي" لكن أحدا لم يُقتل. كنت أفكر في نفسي وفي فيرونيكا، ولم آخذ في الاعتبار أدريان.

واكتشفت شيئا آخر: أن هناك غلطة أو خللًا إحصائيًا في فرضيّة مارغريت حول المرأة الواضحة مقابل المرأة الغامضة، أو بالأحرى في الجزء الثاني منها، حول أن الرجال ينجذبون لأحد النوعين. أنا انجذبت لكليهما، فيرونيكا ومارغريت.

أتذكر تلك الفترة من مراهقتي المتأخّرة حين كان رأسي يثمل بصور المغامرات. هكذا سيكون الأمر حين سأكبر، سأذهب إلى هناك، وأفعل هذا، وأكتشف ذاك، وأحبُّ هذه، ثم هذه، ثم هذه وهذه. سأعيش كما عاش ويعيش الأبطال في الروايات. أيّ روايات بالضبط؟ لا أذكر، لكن سيكون في انتظاري الإحساس بالحماس والخطر فحسب، النشوة واليأس (اليأس الذي يتبعه مزيد من

النشوة) على كل حال... من هذا الذي قال شيئا عن "ضآلة الحياة والتي يبالغ الفن في تصويرها"؟ كانت هناك لحظة في أواخر العشرينيات من عمري اعترفت فيها أن هذه المغامرات لن يكون لها أيّ وجود. لن أفعل أبدا تلك الأشياء التي حلمت بها في مراهقتي. بدلا من ذلك، مارست العمل، أخذت إجازات، ومضت بي الحياة. لكن الزمن... كيف يطرحنا الزمن أرضًا ثمّ يُذهلنا. كنا نظن أننا ناضجين عندما كنا –فقط– في أمان. تخيلنا أننا مسؤولون لكننا كنا جبناء فحسب. ما أطلقنا عليه "واقعيّة" تبيّن أنه هروب من الحقائق بدلا من مواجهتها. الزمن... امنحنا الكفاية من الزمن وكلّ قراراتنا المدعومة ستبدو مرتعشة، وكل معتقداتنا المستقرّة ستغدو متقلّبة.

لم أفتح المغلّف الذي أعطتنيه فيرونيكا إلا بعد يوم ونصف. انتظرت لأني كنت أعرف أنها تتوقع مني ألا أنتظر، أن أفضّ المغلّف قبل أن تغيب عن ناظري. لكني كنت أعرف أن المغلّف يحوي تقريبا ما أريد: على سبيل المثال، مفتاح قفل خزينة سأعثر فيها على مذكرات أدريان. في الوقت ذاته لم أكن مقتنعا بعبارتها المتزمتة حول عدم قراءة مذكرات الآخرين. يمكنني أن أعتقد أنها أحرقت المذكرات عقابا على أخطاء أو عثرات قديمة لكن ليس دفاعا عن مبدأ الالتزام بالسلوك السليم!

حيّرني أنها اقترحت أن نلتقي. لماذا لم تستخدم البريد السريع لتتجنب اللقاء الذي بدا بوضوح أنها لا ترغب به؟ لماذا وجها لوجه؟ لأنها كانت حريصة على أن تلقي نظرة عليّ بعد كل تلك السنوات، حتى وإن جعلها ذلك تقشعر؟ اشك في ذلك. فكّرتُ في الدقائق العشر التي قضيناها صحبة بعضنا: الجلسة، تغيير الجلسة، القلق من الجانبين، ما قيل وما لم يُقَل. في النهاية توصّلت إلى فرضيّة: إذا كانت بحاجة للّقاء بسبب ما فعلته -وهو أن تُعطيني المغلّف- إذن فهي بحاجة له لتقول ما قالته، أنها أحرقت مذكرات أدريان. ولماذا كان عليها أن تقول ذلك على ضفة التايمز الرماديّة؟ لأنه كان قابلا للإنكار. لم ترغب في امتلاكي دليل البريد الإلكتروني المطبوع. إن كان بإمكانها أن تزعم أنّي من طلب لقاءها، ألن يكون صعبا عليها أن تنكر أنها اعترفت بإحراق مذكرات لا تملكها؟

بعد أن توصّلت لهذا التفسير المؤقت، انتظرت حتى المساء، تناولتُ عشائي وصبيت لنفسي كأسّا إضافيا من النبيذ وجلست مع المغلّف. لم يكن اسمي مدوّنًا عليه؛ لعل هذا أكثر دلالة على قابليته للإنكار؟ بالطبع لم أمنحه إياه، ولم ألتق به. إنه مجرد متطفل على البريد الإلكتروني، مهووس، مدمن للإنترنت!

كان يمكنني أن أحدد من شريط الظل الرماديّ حول حافة الورقة الأولى أنها نسخة ضوئيّة. هل كانت بحوزتها؟ ألا تتعامل بالوثائق الأصلية إطلاقا؟ ثم لاحظتُ التاريخ أعلى الصفحة، وخطّ الكتابة:

إنه خطّي، كما اعتدتُ أن يكون، بعد كل تلك السنوات. تبدأ الرّسالة "عزيزي أدريان". قرأتها، أسندتُ قدميّ، وأخذت كأس نبيذ وأعدتُ ما فيه إلى زجاجته ثانية. ثم سكبتُ لنفسي كأسًا ضخمًا من الويسكي.

كم مرّة يحدث أن نروي قصة حياتنا؟ كم مرة نضبطها ونزخرفها ونُجري عليها تعديلات ماكرة؟ ومع امتداد الحياة، يقلّ عدد المحيطين بنا الذين يمكن لهم أن يذكّرونا أن حياتنا ليست حياتنا، لكنها مجرد قصة رويناها عنها. رويناها لآخرين، لكن –في الأساس– كنا نرويها لأنفسنا.

عزيزي أدريان، أو بالأحرى، عزيزيَ أدريان وفيرونيكا (مرحبا بكِ يا عاهرة وأهلا بك في هذه الرسالة)

حسنٌ، بالتأكيد يستحقّ أحدكما الآخر، فأنا أتمنّى لكما البهجة كلّها. أتمنى أن يكون التورّط في علاقتكما متبادلًا كي تكون الخسائر دائمة. أتمنى أن تندما على اليوم الذي قدّمتما فيه بعضكما إلى بعض، وأتمنى أنه عندما تنفصلان، وهو ما سيحدث حتما –أتوقّع لكما أن تستمرا ستة أشهر، وهو ما سيمتد بفعل كبريائكما إلى سنة كاملة، وذاك أفضل على كل حال كي ينغرس فيكما الخازوق أكثر– نعم أتمنى لكما عندها مرارة تمتد طوال العُمر وتُسمّم علاقاتكما

التالية. جانبٌ مني يتمنى أن يكون لكما طفل، لأنني أؤمن تماما بانتقام الزّمن، نعم، حتى الجيل التالي والجيل الذي يليه. كما يحدث في "كتب الآداب العظيمة" ينبغي أن يتّجه الانتقام نحو الأشخاص المناسبين. بمعني: أنتما الاثنان، رغم أنكما لستما من جزءًا من الآداب العظيمة، فإنّكما مجرّد شخصيّتين كارتونيّتين رخيصتين. لذا لا أتمنى لكما ذلك، فلن يكون من العدل أن نوجع جنينًا بريئا بحقيقة أنه ثمرة صلبيكما، لو غفرتما لي شاعريتي. لذا فلتستمري في وضع العازل على عضوه، فيرونيكا، أو لعلك لم تتركيه يصل إلى تلك المرحلة بعد؟

على أي حال، كفانا مجاملات. لديّ بضعة أشياء دقيقة لأقولها لكلّ منكما.

أدريان: أنت تعلم بالفعل أنها ساقطة، بالطبع، رغم أني أتوقع منك أن تقول لنفسك أنها كانت في خضم صراع مع مبادئها، ويمكن لك –كفيلسوف– أن توظّف خلايا التفكير الرمادية في دماغك للتغلب عليه. إن لم تكن قد تركّتك تصل إلى آخر الشوط بعد، فإني أقترح عليك الانفصال عنها، وسرعان ما ستجدها حول بيتك بسراويل داخلية مبلّلة ومجلّاتٍ جنسيّة كهدايا مبذولة دون مقابل. لكن استخدامي لكلمة "ساقطة" هو استعارة كذلك: لأنها ستتلاعب بذاتك

دون أن تكشف ذاتها لك. أترُك تشخيص ذلك للأطباء النفسيين -الذين يختلفون لديها باختلاف أيام الأسبوع- وأسجل ملاحظة مجرّدة بشأن عدم قدرتها على فهم حياة أو مشاعر أي شخص عدا نفسها. لو كنتُ مكانك، لربما كنت سألت أمها عنها: سَلها عن التلف الذي حدث لها قديما. عليك أن تفعل ذلك بالطبع من وراء فيرونيكا، لأن الفتاة يا صبي مولعة بالتحكّم بالآخرين. آه، وهي متحذلقة كذلك، كما لابدّ أن تكون واعيًا إلى أنها ترافقك لا لشيء سوى لأنك ستحمل درجة البكالوريوس في الآداب سريعًا، فهي تلحق اسمك. تذكّر كم كنت تكره الأخ جاك ورفاقه المتأنقين؟ هل هؤلاء هم من تريد أن تكون معهم الآن؟ لا تنسَ: امنحها وقتًا وستنظر إليك بازدراء كما تنظر هي إليّ الآن.

فيرونيكا: مُسلية هذه الرسالة المشتركة. خبثكِ مختلطٌ بتزمّته. زواج موفّق للمواهب، وموفقٌ أيضا لإحساسك بالتفوّق الطبقي مقابل إحساسه بالتفوّق العقلي. لكن لا تظني أنك ستفوقين أدريان مهارة أو حيلة كما حدث معي (لفترة ما) يمكنك استخدام تكتيكاتك لعزله، فصله عن أصحابه القدامى، وجعله مُعتمدًا كليًا عليكِ...إلخ. ربما يفلح ذلك فترة قصيرة، لكن على المدى البعيد؟ يعتمد هذا على قدرتك أن تحملي منه قبل أن يكتشف أنك مملّة، حتى

وإن نجحت في الاحتفاظ به، يمكنك أن تتوقعي حياة طويلة من تصويب منطقك في التفكير، وحذلقة على طاولة الإفطار والتثاؤبات المختنقة وسط سيل التصرفات المتكلّفة طوال الوقت. لا يمكنني أن أفعل لكما أي شيء الآن، لكن الزمن سيفعل. الزمن سيخبركما، فهذه هي عادته.

أطيَب الأماني لكما، عسى أن يسقط المطر الحمضيّ على فروة رأسيكما الدهنيّة.

توني.

الويسكي، كما اكتشفتُ، يساعد على صفاء التفكير، ويقلّص مساحة الألم. له فضيلة إضافية كذلك، هي جعلك مخمورا، أو مخمورا جدا، لو تم تناوله بكمية كافية. أعدت قراءة تلك الرسالة مرات عدّة. لا يمكنني أن أنكر تسلّطها أو قبحها. كل ما يمكنني أن أردّ به هو أنّي كنت مؤلفها حينئذ، لكني لست مؤلفها الآن. لم أتعرف على ذلك الجزء من نفسي الذي كتب تلك الرسالة. لكن ربما كان ذلك -ببساطة- مجرّد خداع للنفس.

في البداية، فكرت في نفسي فحسب، كيف كنت وكيف صرت: هشًّا، غيورًا، مؤذيًا، بسبب ما عندي من شعور حادّ بالنّقص. كذلك محاولتي هدم علاقتهما. لقد أخفقت في ذلك على الأقل، فقد أكّدَت والدة فيرونيكا أن أدريان كان سعيدا في شهوره الأخيرة.

لا يعني أن ذلك يعفيني من المسؤولية. لقد عادت صورتي وأنا صغير لتصدمني وأنا كبير بما كنت عليه حينئذ، أو بما كنت قادرًا أن أكونه. ومؤخّرًا فحسب بدأت أكتشف كيف صار الشهود على حياتنا يتناقصون، وبذهابهم تذهب أدلّة وجودنا الحقيقي. وها أنا ذا أمام دليل بغيض لِمَا كنت عليه، لو أن هذه فحسب هي الوثيقة التي خلّفتها لي فيرونيكا.

أخذت أفكر فيها بعد ذاك، ليس في الكيفية التي تلقّت بها هذه الرسالة وقتها –سأعود لذلك لاحقا– لكن لماذا أعطتني إياها. بالطبع، أرادت أن تشير إلى مدى ما كنت عليه من قذارة، لكن الأمر كان أكبر من ذلك، كما فكرت: في سياق مواجهتنا الحالية، كانت حركة تكتيكية، تحذيرًا، إذا أردتَ أن أثير ضجة قانونية فسيكون هذا جزءا من دفاعها، وعليّ أن أكون واحدا من الشهود على نفسي.

ثم فكّرتُ في أدريان، صديقي القديم الذي قتل نفسه، وكان هذا هو آخر اتصال بيننا: التشهير به ومحاولة لإفساد أول وآخر علاقة عاطفية في حياته. حين قلت إن الزمن سوف يخبره فقد أخطأت في التقدير، فلم يخبرهما الزمن لكنه انتظر ليخبرني أنا.

وأخيرا تذكّرت: بطاقة البريد التي أرسلتها لأدريان ردًّا على خطابه. تلك الرسالة اللطيفة المزيّفة حول أن كل شيء على ما يرام، عزيزي فلان. كانت البطاقة تحمل صورة جسر سسبنشن كليفتون، حيث يقفز عدد من الأشخاص سنويا نحو حتفهم.

في اليوم التالي، عندما استعدت توازني، فكرت في ثلاثتنا، وفي تناقضات الزمن المختلفة. مثلا: أننا في شبابنا نكون أكثر حساسية، وأكثر قدرة على الإيلام، ثم حين يبدأ الدم يبطئ من سرعته، نصير أقل حدة، وعندما نكون أكثر تحصُّنًا وقدرة على تحمّل الألم، تغدو خطواتنا حَذِرة. يمكنني الآن أن أضايق فيرونيكا، لكني لا أجرؤ أن أخدشها ولو من بعيد.

حين أنظر إلى لأمر الآن، أكتشف أنه لم يكن قاسيا منهما أن يخبروني أنهما صارا "مُرتبطين" بل كان الوقت مناسبا، وبدا واضحا أن فيرونيكا كانت صاحبة الفكرة بكاملها. لماذا كان ردّ فعلي بذلك العنف النووي؟ جرح الكرامة، توتّر ما قبل امتحانات السنة النهائيّة، الشعور بالعزلة؟ تلك أعذار كلّها. أضف إلى ذلك، كلا، ليس العار هو ما أشعر به ولا الندم، لكنه شيء أندر وأقوى تأثيرا: الشعور بالإثم. شعور أكثر تعقيدا وتركيبا وبدائيّة. الملمح الأوّل فيه أنه ليس ثمة ما يمكن فعله، لقد فات كثير من الوقت، وكثير من الأذى، ولم يعد مُجديا تقديم أي التماسات، لكنّي، بعد أربعين عاما، أرسلتُ إلى فيرونيكا رسالة إلكترونيّة أعتذر فيها عن ذلك الخطاب.

ثم فكرت مجددا في أدريان. من البداية، كانت رؤيته أوضح منّا؛ فبينما كنا نمرح في ركود مراهقتنا متصورين أن سخطنا الدائم هو استجابة للظروف الإنسانية، كان أدريان ينظر أبعد منا وبرؤية

أكثر اتساعا. كان يحس بالحياة بشكل أكثر صفاءً، لا سيّما في تلك اللحظة التي قرر أن يتخلى فيها عن شُعلتها. مقارنة به، كم كنتُ مشوّشًا، غير قادر على تعلم شيء من الدروس القليلة للحياة التي واجهتها. وفق تعبيري، تعاملت مع واقعية الحياة واستسلمت لضروراتها، (إن كان هذا، فالأمر كذلك) ومضت بي السنوات. وفق تعبير أدريان، لقد تنازلت عن الحياة، تنازلت عن اختبارها، تلقيتها كما هي. وهكذا، للمرة الأولى، أشعر بإثم أشد اتساعا –شعور بين الإشفاق عن النفس وكراهيتها معا– تجاه حياتي كلها، كلها. لقد فقدت أصدقاء شبابي. فقدت حبّ زوجتي، تخلّيت عن الطموحات التي كانت تُمتعني، أردت من الحياة ألّا تزعجني، وأفلحتُ في تماما، فكم أبدو مثيرًا للشفقة الآن.

متوسط المستوى، هذا ما كنت عليه دائما. متوسط في الجامعة والعمل، متوسط في الصداقة والوفاء والحب، ودون شك متوسّط في الجنس. أجريت دراسة حول راكبي الدراجات البخارية في إنجلترا منذ سنوات، أظهرت أن خمسة وتسعين بالمائة ممّن تم اختيارهم كانوا يظنون أن مستوى قيادتهم "فوق المتوسط" لكن وفق القانون الرياضي، لابدّ أن نكون جميعا في المتوسط. لم يجلب ذلك لي أيّ راحة. تردّدَت الكلمة في ذهني. متوسّط في الحياة، متوسّط في الحقيقة، متوسّط في الأخلاق. كان أول رد فعل لفيرونيكا حال رؤيتي هو التعليق بأني فقدتُ شَعري، ليس أكثر من ذلك.

كانت الرسالة التي بعثت بها ردا على اعتذاري "أنت لم تفهم بعد؟ أليس كذلك؟ لكنك لم تفعل أبدا من قبل" لم يكن بوسعي الشكوى؛ حتى وإن وجدت نفسي –بشكل مثير للشفقة– أتمنى لو كانت استخدمت اسمي في هذين السطرين.

تساءلت كيف أبقت فيرونيكا في حوزتها رسالتي تلك. هل أوصى لها أدريان بكلّ أشيائه؟ لم أكن أعرف إن كان أدريان قد ترك وصية أصلا أم لا. لعله احتفظ بها في مذكّراته، وعثرَت هي عليها هناك. كلا، هذا ليس تفكيرًا سليمًا؛ لو كان الأمر كذلك لكانت السيّدة فورد عثرت عليها، وساعتها ما كانت لتترك لي الخمسمائة جنيهًا استرلينيًا.

تساءلت كذلك لِمَ تكلّفت فيرونيكا الرّد على رسالتي، فمن المفترض أنها تكرهني تماما. حسنا، ربما هذا ليس صحيحا.

تساءلت ما إذا كانت فيرونيكا عاقبت أخيها جاك على إعطائي بريدها الإلكتروني.

تساءلت ما إذا كان ردها بعد كل تلك السنوات "لا يبدو الأمر جيدا" مجرّد ردّ مهذّب. لعلها لم ترغب في النوم معي لأن الاتصال الجنسي معي، في الوقت الذي كانت تحدده، لم يكن ممتعا بما يكفي. تساءلت ما إذا كنت أخرق، مندفعا، أنانيا. وإذا لم يكن، فكيف لي أن أعرف؟

جلست مارغريت واستمعت لي بين أطباق معجنات الكيش والسلطة، ثم حلوى الباناكوتا الإيطالية بالفواكه، وأنا أصف اتصالي بجاك، صفحةِ مذكرات أدريان، اللقاء على الجسر، ما تضمنته رسالتي وشعوري بالإثم. وضعت فنجان قهوتها في الطبق بنقرة خفيفة.

"أنت ما تزال تحب كعكة الفواكه"

"كلا، لا أظن ذلك"

"توني، لم تكن الجملة استفهامية، كانت تقريرية"

نظرتُ لها بامتنان. كانت تفهمني أكثر من أي شخص آخر في العالم، ورغم ذلك ما تزال تقبّل تناول الغداء معي، وتتركني أنطلق وأنطلق في الحديث عن نفسي. ابتسمتُ لها بطريقة تعرف –دون شك– معناها.

"يوما من الأيام، سأدهشك" قلتُ.

"أنت ما تزال تدهشني. اليوم مثلا"

"نعم، لكني أريد أن أدهشك بطريقة تجعلك تفكرين فيّ بطريقة جيدة، لا سلبية"

"أنا لا أفكر فيك بطريقة سيئة، ولا حتى أفكر في كعكة الفواكه بطريقة سيئة، وإن كنت أعترف أن رأيي فيها كان دومًا أدنى من مستوى سطح البحر"

لا تلعب مارغريت دور المنتصر؛ إنها لم تُشر حتى إلى أنّي تجاهلت

نصيحتها. أعتقد أنه يسعدها أن تكون أذنا متعاطفة، ويسعدها كذلك أن تتذكر طوال الوقت لِمَ هي سعيدة أنها لم تعد زوجتي! لا أعني أن في ذلك الكلام معنى سيئا، لكن هذا هو الوضع.

"هل يمكنني أن أسألكِ سؤالا؟"

"أنت تسألني دومًا"

"هل تركتِني بسببي؟"

"كلّا" قالت "تركتك بسببنا"

علاقتي بسوزي جيدة جدا، كما يطيب لي أن أكرر، وهو تقرير يمكن لي أن أقسم عليه بسعادة أمام المحكمة. إنها في الثالثة والثلاثين من عمرها، أو ربما الرابعة والثلاثين. نعم، الرابعة والثلاثين. لم تقم بيننا أيّة نزاعات منذ أن جلستُ في الصفّ الأمامي من منصّة الزواج المصنوعة من خشب البلوط لأقوم بدوري كشاهد. أتذكر الوقت الذي كنت أتوقّع فيه الخروجَ من حياتها، وربما من حياتي أيضا، لو شئنا الدقة. لقد انتهت المهمة، ووصلت الطفلة بأمان إلى مرفأ الزواج المؤقت. كل ما عليك الآن هو ألا تصاب بالألزهايمر وأن تترك لها قدر ما تستطيع من النقود. وحاول أن تكون أفضل من أبويك وتموت في وقت ما تزال فيه النقود ذات نفع بالنسبة لها. يمكن لهذه أن تكون البداية.

لو كنا بقينا معا، أنا ومارغريت، يمكنني القول أنّي كنت سأصير

ذلك الجد الشغوف لدرجة الجنون؛ وليس من العجيب أن مارغريت أكثر نفعا مني. لم تكن سوزي تترك الأطفال معي لأنها لم تكن تعتقد، رغم كل ما غيرته من حفاظات وغيرها، أنّي قادر على رعايتهم "يمكنك أن تأخذ لوكاس لمشاهدة مباراة كرة قدم حين يكبر" هكذا أخبرتني ذات مرة. حسنا، الجد المصاب بالرمد الذي يقود الفتى –حفيده– نحو أسرار لعبة الكرة؛ كيف تكره الأشخاص الذين يرتدون الزي المختلف، كيف تتصنع الإصابة، كيف تتمخط في حفرة بالأرض؟ هكذا يا صبي، تضغط على أحد منخريك وتدفع بما في الثانية للخارج، كيف تكون مغرورا ومتبجحا وتترك أفضل سنواتك خلفك قبل أن تفهم حتى ما هي الحياة. حسنا؛ أنّي أتطلع فعلا لأخذ لوكاس لمشاهدة مباراة كرة القدم.

لكن سوزي لم تلاحظ أنّي لا أحب اللعبة، أو لا أحب ما صارت إليه. إنها عملية فيما يخص العواطف؛ كأمها. لذا فإن عواطفي كما هي على الحقيقة لا تعنيها. إنها تفضّل الافتراض أنّي أحمل مشاعر معينة وتتصرف وفق هذا الافتراض. عند مستوى معين، تلومني على الانفصال. وكأن الأمر بما أن أمها كانت تفعل كل شيء، فلا بد أن اباها أخطأ في كل شيء.

هل تتطوّر الشخصيّة عبر الزّمن؟ في الرواية تتطوّر، بالطبع، وإلا ما كانت هناك قصة. لكن في الحياة، هل تتغيّر شخصيّة المرء

وسلوكه؟ هل يُطوّر حقًّا عاداته ويُغيّر مواقفه؟ هذا الأخير هو أمر مختلف ربما، أشبه بالديكور. لعلّ الشخصيّة أقرب إلى الذّكاء، إلا أن الشخصية تصل إلى قمّتها متأخّرة قليلا، بين العشرين والثلاثين عامًا من العمر. ثم نبقى بعد ذلك حبيسين لما حدث لنا. "نحنُ" مسؤوليتنا الشخصيّة. ألا يفسر لنا ذلك حياة كثيرين؟ هنا تكمن -إن لم نكن نبالغ في استخدام الكلمات الكبرى- التراجيديا.

"سؤال التراكم" كما كتب أدريان. تراهنُ بنقودك على حصان، فيفوز، فتنتقل أرباحك إلى لحصان التالي في السباق التالي، وهكذا. تتراكم أرباحك. لكن هل يحدث ذلك لخسائرك؟ ليس في حلبة السباق؛ فأنت تخسر هناك رهانك الأصلي. لكن في الحياة؟ لعلّ القوانين فيها مختلفة. تراهن على علاقة عاطفيّة، فتفشل، فتراهن على علاقة أخرى، فتفشل أيضًا: وربما ما تخسره ليس مجرّد حاصِل طَرح الاثنين من بعضهما، بل حاصل ضرب ما راهنت عليه. هكذا يبدو الأمر على أيّ حال. ليست الحياة مجرّد جمع وطرح. هناك تراكم، مضاعفات، للخسارة والفشل.

تشير وثيقة أدريان كذلك لسؤال المسؤولية. هل هناك تسلسل في الأمر، أم أن المسؤولية ضَيقة المدى؟ إنّي أميل إلى ذلك. معذرة، لا يمكنك أن تلوم والديك المتوفيين، أو وجود أخوتك وأخواتك (أو غيابهم)، أو جيناتك، أو مجتمعك، أو أي شيء آخر غير طبيعي. ابدأ

بفكرة أنها مسؤوليتك أنت وحدك ما لم يظهر دليل قوي يناقض ذلك. كان أدريان أذكى مني -فقد استعمل المنطق بينما استعملتُ أنا الحسّ السّليم- لكننا وصلنا بشكل أو بآخر إلى النتيجة ذاتها. لا أقول ذاك لأنّي أدّعي فهمًا لكلّ ما كتبه أدريان. فقد حدّقتُ في تلك المعادلات في مذكّراته دون أدنى إضاءة للفهم. لكني لم أكن جيّدا قط في الحساب.

لا أحسد أدريان على موته، إنما أحسده على وضوح حياته. ليس فقط لأنه رأى، فكّر، أحسّ وتصرّف بشكل أوضح منّا جميعًا في حياته، لكن أيضًا عندما مات. لا أعني أيًّا من ذلك الهراء الذي كان يتردّد عقب الحرب العالمية الأولى مثل "مات في زهرة شبابه"، تلك العبارة التي استمرّ مدير المدرسة يلوكها عقب انتحار روبسون، و"لن يكبروا بينما نحن سنكبر" مُعظمنا لا يأبه ما إذا كان سيكبر أم لا، فالوضع البديل أفضل دائما حسب قناعتي. كلا، ما أعنيه هو: حين تكون في العشرينات، وحتى وإن كنت مرتبكا ومترددا حول أهدافك، فإن إحساسك بالحياة نفسها يكون قويا، وإحساسك بما عليه حياتك وبما تريدها أن تصير إليه. ولاحقا... لاحقا، يقع مزيد من التردّد والتداخل، ومزيد من الخطوات نحو الوراء، ومزيد من الذكريات المزيفة. هناك، يمكنك أن تتذكر حياتك بكاملها. لاحقا، تتحول الذاكرة إلى شيء أشبه بمُزق وأجزاء متناثرة. إنها

أشبه بصندوق الطائرة الأسود الذي يسجل كل ما حدث اثناء التصادم، لكنّه يمحو الشّريط تلقائيًا إذا لم يحدث أيّ خطب في الرّحلة. وهكذا، إن حدث تصادم، فسيكون السبب واضحا، وإن لم يحدث، فسيغدو مسار رحلتك أقل وضوحا.

أو يمكننا التعبير عن ذلك بطريقة أخرى. قال أحدهم إن أفضل الأوقات بالنسبة له في التاريخ هي أزمنة الانهيار لأنها تعني أن شيئا ما جديدا على وشك أن يولَد. هل يمكن تطبيق ذلك على الحياة الفردية؟ أن تموت مع ميلاد شيء جديد، حتى وإن كان ذاك الشيء الجديد هو ذات المرء الحقيقيّة؟ فكما أن التغييرات السياسية والتاريخية محبطة، فإن التقدم في العمر محبط كذلك. وكذلك هي الحياة. أظنّ أحيانًا أن غرض الحياة هو أن نعتاد الخسارات النهائية، أن تُثبت لنا أنها ليست جيدة كما نتصوّر وندّعي.

تخيّل شخصا ما، آخر الليل، مخمورا قليلا، يكتب خطابا لحبيبته القديمة. يكتب العنوان على المغلّف، يضع الطابع البريدي، يلتقط معطفه ويخرج متوجّهًا إلى صندوق البريد، يُلقي الرسالة ثمّ يعود إلى المنزل ويلقي نفسَه على الفراش. عادةً، ليس ذاك ما سيحدث في النهاية، أليس كذلك؟ سينتظر حتى الصباح ليرسل الرسالة. وعندها، من المحتمل، أن تخطر في باله أفكار أخرى. وهكذا يكون هناك كثير ليقال عن رسائل البريد الإلكتروني: تلقائيتها، فوريتها،

صدق مشاعرها، وربما حماقاتها. مضى تفكيري –إن لم يكن هناك مبالغة في استخدام الكلمة– إلى التساؤل عن لماذا يتحتم التصديق بوجهة نظر مارغريت حول الأمر؟ إنها لم تكن هناك وما تزال تحمل أحكامها المسبقة. لذا أرسلت رسالة عبر البريد الإلكتروني إلى فيرونيكا، عنونتُها "سؤال" وكان كالآتي "هل تظنين أنّي كنت أحبك وقتها؟" وقعتها باسمي وضغطت على زر الإرسال قبل أن أغيّر رأيي.
كان آخر ما توقعته هو تلقي الرد في الصباح. هذه المرة لم تمسح عنوان الرسالة – كعادتها – وكان الرد "إن كان عليك أن تسأل السؤال فالإجابة هي، لا. ف"

لعله يوضح شيئا عن حالتي الذهنية أنّي وجدت هذا الرد طبيعيا، بل ومُشجعا.

وربما يوضح شيئا إضافيا أن رد فعلي كان الاتصال بمارغريت لأخبرها بتلك الرسالتين المتبادلتين. بعد شيء من الصمت قالت زوجتي السابقة "توني، أنت الآن بمفردك على الطريق"

يمكن التعبير عن الأمر بطريقة أخرى، بالطبع، يمكنك فعل ذلك دائما. إذن، على سبيل المثال، هناك سؤال الازدراء، ورد فعلنا تجاهه. يمنحني الأخ جاك نظرة متغطرسة، وبعد أربعين عاما أستخدم كل ما لدي من عذوبة – كلا، لا داعي للمبالغة: أستخدم اللطف المزيف للحصول على معلومات منه، ثم أخون ثقته، فورا.

ازدرائي مقابل ازدرائك. حتى وإن كان الأمر بالنسبة له، كما أعترف الآن، لا يعدو مجرد التسلّي بعدم الاهتمام. ها قد أتى رفيق أختي الأخير – حسنا، كان هناك واحد قبله، وسيكون هناك دونما شك واحد آخر قريبا. لا داعي لتفحص تلك العينة الجديدة عن قرب. لكني – أنا – شعرت به وقتها نوعا من الازدراء، تذكرته على هذه الشاكلة، ورددت على هذا الشعور بما يقابله.

وربما مع فيرونيكا كنت أحاول فعل شيء أكبر من ذلك: ليس الرد على ازدرائها لي، لكن التغلب عليه. يمكنك أن تبصر طغيان هذا الشعور؛ لأنه بإعادة قراءة رسالتي، والشعور بغلظتها وعدوانيّتها، تبدو صدى لصدمة عميقة وصميمة، ولو لم تكن شعرت بازدرائي من قبل، فلابدّ أنها شعرت به بعد أن عرض عليها أدريان كلماتي. ولابد أن تحمل أيضا لي الضغينة على مرّ السنوات، وتكون مبررا للاحتفاظ بمذكرات أدريان، أو حتى إتلافها.

كنت أقول بثقة كيف أن الملمح الأساسي للشعور بالإثم هو أنه لا شيء يمكن فعله لتغييره، أن وقت الاعتذار أو التعويض قد فات. لكن ماذا لو كنت مخطئا؟ ماذا لو كان يمكن للشعور بالإثم أن يعود للوراء، أو يمكن أن يتحول لشعور بسيط بالذنب، وهكذا يصير من الممكن أن تعتذر عنه، ويصير من الممكن غفرانه؟ ماذا لو كان يمكن أن تثبت أنك لست الصبي الشرير الذي كانت تظنّه، وهي ما تزال مستعدة لتقبّل أدلة إثبات ذلك؟

ولعلّ دافعي جاء من الجهة العكسية؛ وأنه ليس متعلقا بالماضي، بل بالمستقبل. مثل معظم الناس، لدي معتقدات خرافية متعلقة بالسفر. ربما أعرف – إحصائيا – أن السفر بالطيران أكثر أمانا من السير إلى محل في أول الشارع، ورغم ذلك، فقبل السفر أفعل أشياء مثل دفع الفواتير، الرد على البريد، الاتصال بشخص قريب وما إلى ذلك.

"سوزي، أنا مسافر غدا"

"نعم يا أبي، لقد أخبرتني من قبل"

"هل فعلت؟"

"نعم"

"حسنا أردت أن أقول مع السلامة، فحسب"

"معذرة، بابا، الأطفال يحدثون كثيرًا من الضوضاء. ماذا كنت تقول؟"

"أوه، لا شيء. قولي لهم إن جدهم يحبهم"

أنت تفعل ذلك لنفسك، بالطبع. تريد أن تترك ذكرى أخيرة، وتريدها أن تكون طيبة. تريدهم أن يفكروا فيك بشكل طيب في حال تبيّن أن طائرتك هي من تلك الأقلّ أمانًا من السير حتى أول الشارع.

وإذا كان هذا هو سلوكنا تجاه عطلة شتوية لا تتجاوز الأيام الخمسة في مايوركا، فلماذا لا نسلك ذات النهج موسّعا مع اقتراب

نهاية العمر، اقتراب نهاية الرحلة –حين سيتدحرج التابوت خلف ستائر مِحرقة الجثث– لا تظنوا بي سوءا، تذكروني جيدا. قولوا للآخرين أنكم كنتم مغرمين بي، أنكم أحببتموني، وأني لم أكن شخصا سيئا. حتى وإن كنت، فهذا ليس موضوعنا.

فتحت ألبوم الصّور القديمة ونظرت إلى الصورة التي طلبَت مني التقاطها في ميدان ترافلجار "...وواحدة مع أصدقائك" وجهَي ألكس وكولن يحملان ذاك التعبير المبالغ فيه لـ "صورة تاريخية" وأدريان جاد بصورة طبيعية بينما فيرونيكا –كما لم ألاحظ أبدا من قبل– تستدير نحوه قليلا. لا تنظر نحوه، لكنها كذلك لا تنظر للكاميرا. بعبارة أخرى، لا تنظر لي. شعرت بالغيرة في ذلك اليوم. أردت أن أقدمها لأصدقائي، وأردتها أن تحبهم، وأن يحبوها. لكن ليس أكثر ممّا يحبّوني بالطبع، وهي التوقعات التي قد تبدو صبيانية وغير واقعية. لذا، حين راحت تطرحُ الأسئلة على أدريان شعرت بالضيق، وحين تهكم أدريان على جاك في الحانة شعرتُ براحة فورية.

فكرت في تتبع ألكس وكولن. فكرت أن أسألهما عن ذكرياتهما، وتأييدهما لما حدث؟ إلا أن دورهما في القصة لم يكن مركزيًا. لم أتوقع لذكرياتهما أن تكون أفضل منّي. وماذا لو كان لتأييدهما وقع مُضرّ عليّ؟ في الحقيقة، تونيّ، لا أظن أنه سيؤذيك أن نقول

الحقيقة بعد كل هذه السنوات؛ لقد كان توني يشتُمك من وراء ظهرك. أوه، كم هذا مسلّ! نعم، كلانا لاحظ ذلك. لقد قال إنك لست ذكيا ولا لطيفا كما تظن نفسك. فهمتُ، هل هناك شيء آخر؟ نعم، لقد قال إن الطريقة التي كنت تدعي بها أنه صديقك الأقرب –أقرب، على كل حال، منّا نحن الاثنين– كانت عبثية وغير مفهومة. صحيح، هل هذا كل شيء؟ ليس بالضبط: أي شخص كان بوسعه أن يرى أن –ماذا كان اسمها– ترافقك حتى يلوح شيء آخر في الأفق. ألم تلاحظ تلك الطريقة التي كانت تغازل أدريان بها ذلك اليوم الذي تقابلنا فيه؟ لقد صُدمنا وقتها؛ كانت تقريبا تضع لسانها في أذنه.

لا، لن يقدّما أي مساعدة. والسيدة فورد ماتت. والأخ جاك خارج المشهد. الشاهد المحتمل الوحيد، هو فيرونيكا.

قلت إني أريد أن أتسلّل تحت جلدها، أليس كذلك؟ إنه تعبير غريب، ويجعلني أفكر في مارغريت وهي تعدّ دجاجة للشواء. تنزع الجلد برفق عن الصدر والوركين، وتضع القليل من الزبد والتوابل داخلها، عشب الطرخون ربما، وبعض الثوم كذلك. لست متأكدا؛ فأنا لم أجرب فعل ذلك بنفسي أبدا، فأصابعي مرتعشة، لا أتصورها تنزع جلد دجاجة.

أخبرتني مارغريت عن طريقة لفعل ذلك، تبدو أكثر إثارة للخيال:

يضعون شرائح فطر الكمأ الأسود تحت الجلد. وهل تعلم ماذا يطلقون عليه؟ الدجاجة في منتصف الحداد. أظن أن تلك الوصفة تعود إلى زمنٍ كانوا فيه لا يلبسون غير الثياب السوداء شهورًا طويلة، والثياب الرمادية خلال باقي السنة، ثم يرجعون ببطء إلى ألوان الحياة. كامل، منتصف، ربع الحداد. لا أعلم إن كانت تلك هي المصطلحات المستخدمة، لكني أعرف أن تدرُّج الزيّ كان محلّ عناية. اليوم، ما طول الفترة التي يلبس فيها الناس ثياب الحداد؟ نصف يوم في معظم الحالات، خلال مسافة العزاء أو مراسم الحرق والمشروبات من بعدها.

معذرة، هذا خارج السياق قليلا. أردت أن أدخل تحت جلدها، هذا ما كنت أقوله، أليس كذلك؟ هل قصدتُ ما كنت أظن أني أقصده بذلك، أو شيئا آخر؟ "لقد أخذتك تحت جلدي" هذه أغنية حب قديمة... أليس كذلك؟

لا أريد أن أتوجه باللوم، أي لوم، إلى مارغريت. لكن، كي نعبّر عن الأمر ببساطة، إذا ما كنتُ بمفردي، فمن كان ليعاونني إذن؟ تردّدت عدة أيام قبل إرسال رسالة أخرى لفيرونيكا. سألت عن والديها. هل ما زال والدها على قيد الحياة؟ هل كانت نهاية والدتها هادئة؟ أضفت تلك العبارات، رغم أني لم ألتق بهما سوى مرة واحدة، لكن أحمل ذكريات جيدة. حسنا، كان ذلك صحيحا بنسبة خمسين

في المائة. لا أعلم بالضبط لماذا سألت تلك الأسئلة. أظن أنّي أردت أن أفعل شيئا ما طبيعيا، أو على الأقل أن أدّعي أن هناك شيئا ما طبيعيا، حتى وإن لم يكن كذلك. حين تكون شابًّا –حين كنتُ شابًّا– تريد لعواطفك أن تكون مثل تلك التي تقرأ عنها في الكتب. تريد منها أن تقلب حياتك رأسا على عقب، تخلق وتُشكل واقعا جديدا. لاحقا، كما أظن، ستريد منها –عواطفك– أن تؤدّي تغييرًا أكثر اعتدالًا وأكثر عمليّة: أن تدعم حياتك كما هي، وكما انتهت. تريد منها أن تخبرك أن كل شيء على ما يرام. هل ثمة خطأ في ذلك؟ كان رد فيرونيكا مفاجئا ومريحا. لم تتعامل مع أسئلتي باعتبارها تعديا، بل وكأنها كانت سعيدة أنها سُئلت تلك الأسئلة. والدها مات منذ خمسة وثلاثين عاما تقريبا. كان إدمانه للشراب يتزايد يوما بعد يوم؛ سرطان في المريء نتج عن ذلك. توقّفتُ عند ذلك، شاعرا بالذنب أن أول كلماتي لفيرونيكا على جسر ووبلي كانت تعليقا وقحا حول الصلع ومدمني الكحول.

بعد موته، باعت أمها البيت في تشيزلهيرست وانتقلوا إلى لندن. أعطت دروسا في الفن، بدأت التدخين، وبدأت تؤجر الغرف حتى وإن كانت غير محتاجة لذلك، وظلت بصحة جيدة حتى العام أو العامين الفائتين: حين بدأت ذاكرتها في التّداعي. كان هناك اشتباه في جلطة، وما لبثت أن بدأت تضع الشاي في الثلاجة والبيض في سلة الخبز، وأشياء من ذاك القبيل. ذات مرة كادت أن تحرق البيت

بنسيانها عُقب سيجارة مشتعلا. ظلت مرحة رغم ذلك، ثم بدأ الانحدار. كانت الشهور الأخيرة بمثابة كفاح حقيقي، وكلا، لم تكن نهايتها هادئة، حتى وإن كان بها شيء من الرحمة.

أعدتُ قراءة هذه الرسالة عدة مرات. كنتُ أبحث عن أي فخ، غموض، إهانة موجهة. لم يكن هناك شيء من ذلك، ما لم تكن هذه المباشرة فخا في حد ذاته. كانت حكاية عادية حزينة، مألوفة، ومرويّة في بساطة.

حين تبدأ في نسيان الأشياء (لا أعني ألزّهايمر، أعني التداعيات المتوقعة للشيخوخة) تكون هناك طرق مختلفة للتفاعل. يمكنك أن تجلس مُحاوِلًا إجبار ذاكرتك على استدعاء اسم ما لشخص أو وردة أو محطّة قطار أو رائد فضاء... أو أن تعترف بفشلك وتبدأ في اتخاذ خطوات عملية باستخدام المراجع أو الإنترنت، أو أن تترك الأمر كله -وتنسى محاولة التذكّر- وما تلبث أن تقفز تلك المعلومة المفقودة إلى السطح بعد ساعة أو يوم، أو غالبا في واحدة من ليالي اليقظة الطويلة تلك التي يفرضها التقدم في السن. حسنا، جميعنا نتعلم ذلك؛ نحن الذين ننسى الأشياء.

لكننا نتعلم شيئا آخر كذلك: أن الدماغ لا يحب أن يكون مادة مطبوعة. عندما تفكر أن كل شيء هو مادة للتناقص، للطرح أو القسمة، سيبدأ دماغك، ذاكرتك، تدهشك. كأنه يقول: لا

تتصور أنه بإمكانك الاطمئنان لبعض الأفكار المريحة عن التدهور التدريجي، فالحياة أكثر تعقيدا من ذلك. وهكذا، سيلقي لك دماغك بقصاصات من وقت للآخر، بل وتحرر عقد الذاكرة المألوفة تلك. هذا، وهو يصيبني بالذعر، ما أجده يحدث لي الآن. أبدأ أتذكر، دون ترتيب محدد أو معنى أو دلالة، تفاصيل دفينة وقديمة لتلك العطلة البعيدة مع أسرة فورد. كان لغرفتي في الدور العلوي منظر يطل على الغابة؛ كان يمكنني سماع صوت الساعة من أسفل تدق معلنة عن الوقت، خمس دقائق بالضبط قبل كل ساعة. السيدة فورد تلقي قشور البيض المكسر إلى صفيحة القمامة وعلى وجهها تعبير اهتمام: اهتمام بالبيض لا بي؛ وزوجها محاولا أن يجعلني أشرب البراندي بعد العشاء، وحين رفضت سألني ما إذا كنت رجلا أم فأرا؛ والأخ جاك مخاطبا السيدة فورد بال"الأُمّ" كأنْ يقول "متى تُدرك الأمّ أنه ينبغي تقديم العلف للقطيع الجائع؟" وفي الليلة الثانية، فعلت فيرونيكا ما هو أكثر من صعود الدرج معي؛ قالت "سأوصل توني لغرفته" وأخذت يدي أمام أفراد أسرتها. علّق الأخ جاك "وما رأي الأمّ في ذلك؟" واكتفت الأمّ بالابتسام. كانت "تصبحون على خير" مضطربة لأني كنت أشعر بانتصاب وشيك. صعدنا على مهل إلى غرفة نومي، وعند الباب قبّلت فيرونيكا فمي وهمست في أذني "نَم نوم المسحور" وبعد أربعين ثانية تقريبا كنتُ أستمني في الحوض الصغير، وتندفع حيواناتي المنوية عبر أنابيب الصرف الصحي للمنزل.

استجابة للنزوة المندفعة، بحثت عن "تشيزلهيرست" على جوجل، واكتشفت أنه لم تكن هناك أبدا كنيسة للقديس ميشيل في البلدة. إذن، كانت الجولة الإرشادية التي قام بها معنا السيد فورد جولة وهميّة، دعابة ما، أو شكلًا من أشكال السخرية منّي. أشك أيضا أن يكون هناك مقهى رويال. انتقلت لجوجل إيرث، مُفتشا ومنتقلا بين جوانب البلدة؛ لكن بدا أن البيت الذي كنت أبحث عنه لم يعد موجودا.

في الليلة التالية، سمحت لنفسي بشراب آخر. شغلت الكمبيوتر واستدعيت فيرونيكا الوحيدة في قائمة البريد الإلكتروني. اقترحت أن نلتقي ثانية. اعتذرت عن أي شيء سخيف فعلته في اللقاء السابق. وعدتها أني لن أتحدث عن وصية والدتها. كان ذلك صحيحا، أيضا. رغم أني لم أنتبه، إلا وأنا أكتب تلك العبارة، إلى أنّي لم أفكر في أدريان ومذكراته منذ أيام.

"هل تريد أن تغلق الدائرة؟" كان هذا هو ردها.

"لا أعرف" أجبتها "لكن اللقاء لن يكون مضرا، أليس كذلك؟"

لا أعرف لماذا، لكن شيئا ما بداخلي قال إنها ستقترح اللقاء على الجسر ثانية، إما ذلك أو أي مكان آخر حميم وواعد بالخصوصية: حانة منسية، قاعة غداء هادئة، أو حتى الحانة في فندق تشيرنج كروس. اختارت هي مطعما فرنسيا في الطابق الثالث لفندق جون

لويس بشارع أكسفورد التجاري.

في واقع الأمر، كان لهذا الاختيار جانبا مفيدا؛ كنتُ بحاجة لشراء أسلاك لتصليح الستارة، محوّل كهربائي للغلّاية، وطقم من تلك الرّقع القماشية التي توضع داخل البنطلون، في موضع الركبة، للكيّ. من الصعب العثور على تلك الأشياء حيث أسكن؛ فمعظم المحلات التي تبيعها تحوّلت إلى مقاهٍ حديثة أو وكالات عقارية.

في القطار المنطلق إلى المدينة كانت هناك فتاة تجلس قبالتي، تسُدّ أذنيها بالسماعات، مغمضة العينين، تهز رأسها على أنغام موسيقى لا يستطيع سماعها سواها. وفجأة، استحضرت ذكرى كاملة: فيرونيكا وهي ترقص. نعم، لم تكن ترقص، هذا ما قلته، لكن هناك أمسية وحيدة حين كانت مستثارة تماما وبدأت تجذب أشرطة موسيقى البوب الخاصة بي.

قالت "شغّل واحدة من هذه ودعني أشاهدك وأنت ترقص"

هززت رأسي "هذه الموسيقى لرقص شخصين"

"حسنا، أرني وأنا سأشاركك"

وهكذا، ضبطت إبرة التحويل الذاتي لمُشغل الأسطوانات، وتحرّكتُ نحوها، هززت كتفيّ وأغمضت عينيّ نصف إغماضة – كأنما أحترمُ خصوصيتها، وانطلقتُ. السلوك الذكوري الاستعراضي الأساسي لتلك الفترة، الفردي بإصرار بينما هو قائم فعليا على الالتزام الصارم بالقواعد السائدة: الرأس ترتعش والقدمان تتبختران، الكتفان

يتمايلان والحوض يهتزّ، مع إضافة ذراعين يتمايلان بنشوة، إضافة إلى أصوات خوار متباعدة. بعد برهة، فتحت عينيّ متوقعا أن تكون ما تزال جالسة على الأرض تضحك عليّ، لكنها كانت هناك، تتمايل بطريقة جعلتني أشك أنها أخذت دروسا في رقص الباليه، شعرها يغطي وجهها وربلتاها متوترتان تفوران بالغطرسة. لم أعرف ما إذا كانت رسالة موجهة لي أم أنها موسيقى البلوز فحسب. في الواقع، لم أهتم؛ كنتُ استمتع شاعرا بالانتصار الصغير. استمر ذلك قليلا، ثم اقتربتُ منها مثل نيد ميلر في أغنيته "من جاك للملك" متراجعا نحو بوب ليند وهو يغني "الفراشة المراوغة" غير أنها لم تلاحظ؛ وبينما هي تدور، اصطدمت بي وهي تكاد تفقد توازنها، قبضت على ذراعها وأمسكت بها.

"أترَين؟ ليس الأمر صعبا"

أجابت "لم أظنّ أبدا أنّه صعب. حسنا. نعم، شكرا لك" قالت بشكل رسمي ثم ذهبت وجلست.

"استمر أنتَ إذا كنت تريد، أنا نلتُ كفايتي"

لكنها ما تزال رغم كل شيء، قد رقصت.

أديتُ مهمتي المفترضة في قسم الخردوات، المطبخ والستائر، ثم ذهبت للمطعم الفرنسيّ. كنت متقدّما عن موعدي بعشر دقائق لكن فيرونكيا كانت –بالطبع– هناك، رأسها محنيّ، تقرأ، واثقةً أني

سأعثر عليها. وأنا اضع حقائبي نظرت لي وابتسمت نصف ابتسامة. فكرتُ: لا تبدين وحشية أو خشنة رغم كل شيء.

قلتُ "ما أزال أصلع"

تراجعَت إلى ربع ابتسامة.

"ماذا تقرئين؟"

أدارت الغلاف نحوي. شيء ما لشتيفان تسفايج (Stefan Zweig).

"إذن، فقد وصلتِ لنهاية الحروف الأبجدية. هل يمكن لأحد أن يأتي بعده؟" لماذا صرتُ عصبيا فجأة، كنت أتحدث ثانية كأني صبي في العشرين من العمر. أيضا، لم أكن قد قرأت أي شيء لشتيفان تسفايج.

"سآخذ معكرونة باستا"

حسنا، ليس ردا غليظا على الأقل.

وأنا أتفحص قائمة الطعام، استمرت في القراءة. كانت المنضدة تُطل على تقاطع السلم المتحرك. أناسٌ صاعدون، أناسٌ نازلونأتفحص . كل منهم يقوم بشراء شيء ما.

"في القطار، كنتُ أتذكر حين رقصتِ في غرفتي. في بريستول"

توقعت منها أن تعارضني، أو تعتبرها إهانة يتعذر فك طلاسمها. لكنها لم تزد أن قالت "ما الذي جعلك تتذكر ذلك" ومع لحظة التأييد تلك، بدأت أستعيد الشعور بالثقة. كانت أكثر أناقة هذه المرة، شعرها أكثر هنداما وأقل رمادية. استطاعت بطريقة ما أن

تبدو –لي– في العشرين والستين في الوقت ذاته.
"إذن..." قلتُ "كيف مضت بك الأربعون عاما الماضية؟"
نظرت نحوي "أنت أوّلا"
حكيت لها حكايتي مع الحياة. النسخة التي أحكيها لنفسي، التقرير المتماسك. سألت عن "هذين الصديقين اللذين قابلتهما معك ذات مرة" دون أن يبدو أنها قادرة على تذكر اسميهما. أخبرتها كيف فقدت الاتصال بكولن وألكس، ثم حكيت لها عن مارغريت وسوزي وأني صرتُ جدّا، وأنا أدفع بعيدا صوت مارغريت وهي تسألني: كيف كعكة الفواكه؟ تحدثت عن حياتي المهنية، وتقاعدي، وانشغالي وإجازات الشتاء التي كنت آخذها، كنتُ أفكر هذا العام في سان بطرسبرج كنوع من التغيير. حاولت أن أبدو راضيا دون تكلّف. كنت في منتصف الكلام عن أحفادي حين رفعت بصرها نحوي، شربت قهوتها في رشفة واحدة، وضعت النقود على الطاولة وقامت.
قمتُ لآخذ أغراضي فقالت: "لا، ابق هنا وانته من طعامك"
كنت عازما على ألا أفعل أي شيء قد يسبب إهانة، فجلست ثانية.
"حسنا، الدور عليك" قلت: قاصدا حياتها.
"دوري في ماذا؟" سألت، كانت قد مضت قبل أن أتمكن من الإجابة.
نعم، إني أعرف ما قد فعلته. لقد استطاعت أن تقضي ساعة معي دون أن تبوح بمعلومة واحدة، دع عنك جانبا أي سر، عن نفسها. أين عاشت وكيف، هل تعيش مع أحد، هل لديها أطفال. في أصبعها

ترتدي خاتما زجاجيا أحمر، غامضا ككل شيء فيها. لكني لم أهتم؛ فعلا، وجدتني أتصرف وكأنه موعد اللقاء الأول مع شخص ما، وقد مرّ دون كوارث. لكن الأمر لم يكن كذلك بالطبع. بعد الموعد الأول لا تجد نفسك جالسا في القطار ورأسك يموج بالحقيقة المنسية حول حياتكما الجنسية المشتركة منذ أربعين عاما خلت. كيف كنّا منجذبين بعضنا لبعض، كيف كانت خفيفة حين تجلس على ساقيّ؛ كيف بدت مستثارة دائما، كيف أنه كانت هناك على كل حال –رغم أننا لم نمارس "الجنس الكامل"– كل العناصر الأخرى: الرغبة، العاطفة، الصراحة والثقة. وكيف أن جزءا مني لم يهتم أبدا "بالمضيّ في الطريق إلى آخره" ولم يهتم بالاستمناء الملحمي بعد رؤيتها في البيت، ولم يهتم بالنوم في سريري الوحيد، منفردا إلا من ذكرياتي معها والانتصاب المتكرر برشاقة. هذا القبول بالأقل من الآخرين كان نتيجة الخوف كذلك، بالطبع، الخوف من أن تحمّل، الخوف من فعل أو قول شيء ما خطأ، الخوف من درجة اقتراب قد لا أستطيع السيطرة عليها.

كان الأسبوع التالي هادئا تماما. أصلحت أسلاك الستارة، وضبط محول الغلاية الكهربائي، وأصلحت الخرق في البنطلون الجينز القديم. سوزي لم تتصل. ومارغريت ستظل ساكنة حتى –وما لم– أتصل بها. وبعد ذلك، ماذا تتوقع؟ اعتذار أو تذلل؟ كلا، لم

تكن ذات طابع تأديبي؛ فدائما ما تقبلّت الابتسامة الحزينة مني كأنها تقدير لحكمتها البالغة. غير أن الأمر لم يكن كذلك هذه المرة. في الواقع، لعلي لن أرى مارغريت لفترة طويلة.

كان جانبٌ مني يجد شعورا هادئا، وبعيدا، بالذنب من أجلها. في البداية لم أجد أي معنى لذلك: لقد كانت هي من أخبرني أنّي الآن بمفردي على الطريق. لكن خطرت لي ذكرى بعيدة، من سنوات زواجنا الأولى. كان أحد زملاء العمل قد أقام حفلة ودعاني؛ لم ترغب مارغريت في الحضور. غازلت فتاة واستجابت هي. حسنا، ما هو أكثر من مغازلة -لكن الأمر ظل أدني من مرحلة ما قبل الجنس- لكني تناسيت الأمر وسرعان ما استعدت اتزاني. إلا أن الأمر ترك في نفسي مزيجا من الشعور بالذنب والاستثارة. والآن، أكتشف أني أشعر بشيء مشابه مجددا. احتجت شيئا من الوقت حتى أدركه بوضوح. في النهاية، قلت لنفسي: حسنا، أنت تشعر بالذنب تجاه زوجتك السابقة، التي طلقتك منذ عشرين عاما، وتشعر بالاستثارة تجاه صديقتك القديمة التي لم ترها منذ أربعين عاما. من الذي قال إذن إن الحياة لم يعد لديها جديدٌ مدهشٌ تقدمه؟

لم أرد أن أضغط على فيرونيكا. وجدت أنه عليّ أن أنتظر حتى تبدأ هي بالاتصال هذه المرة. راجعت بريدي الإلكتروني مرارا وتكرارا. لم أكن أتوقع فيضان رسائل بالطبع، لكني كنت أؤمّل، ربما، في رسالة مهذبة أنه كان من اللطيف أن نلتقي بعد كل تلك السنوات.

حسنا، لعل اللقاء لم يكن لطيفا. لعلها ذهبت في رحلة. لعل هناك مشكلة تقنية في الإنترنت. من الذي قال تلك العبارة عن "الأمل الأبدي" لدى النفس الإنسانية؟ لعلك تعرف كيف تبدو تلك القصص التي نقرؤها من آن لآخر وتطلق عليها الصحف "الحب الذي يُزهر متأخرا"؟ عادة ما تكون عن رجل مسن غريب الأطوار وامرأة عجوز مثله في منزل التقاعد؟ كلاهما أرمل، يضغط على طاقم أسنانه وأيديهما مصابة بالتهاب المفاصل؟ غالبا يحتفظان بالحديث عن الحب بلهجة شبابية تبدو غير لائقة أبدا. "حين وقعت عيناي عليه/عليها عرفت أنه/أنها حب حياتي" وأشياء من هذا القبيل. يتأثر جانب مني ويريد أن يشعر بالابتهاج من أجلهما، إلا أن جانبا آخر يبدو مرتبكا وحذرا. لماذا نمضي في ذلك الهذر قُدُمًا مرة أخرى؟ ألا تعرف القاعدة: لو تلقيت النهشة مرة، فستتلقاها ثانية؟ إلا أني أجدني الآن متمردا على نفسي... ماذا؟ تقليدي، فقير الخيال، مُستسلم للإحباط؟ فضلا عن أني ما أزال محتفظا بأسناني.

في تلك الليلة ذهبت مجموعة منّا إلى قرية منستروورث لمشاهدة ظاهرة ارتفاع المدّ في نهر سيفرن. كانت فيرونيكا بجواري. لابدّ أن ذاكرتي قامت بمحو ذلك من سجلاتها، لكني الآن أعلمه يقينا. كانت هناك، معي. وجلسنا على الملاءة الرطبة لضفة النهر متشابكي الأيدي. كانت قد أحضرت معها دورقا من الشوكولاتة الساخنة.

أيّام البراءة! يقبض ضوء القمر على الموجة المتكسرة وهي تقترب. الآخرون يصيحون مع اقترابها، ويصيحون بعدها، ويركضون في الليل وسط أشعة ضوء الكشافات المتقاطعة. وحدنا، هي وأنا، كنا نتحدث كيف أن الأشياء المستحيلة يمكن لها أن تحدث، الأشياء التي لا يمكن لك أن تصدقها ما لم تشهدها بنفسك. كان مزاجنا وقورا، أو رزينا، أكثر منه منتشيا أو مبتهجا.

هذا على الأقل ما أذكره الآن، رغم أنك لو وضعتني في محكمة فإني أشكّ أنه يمكنني الدفاع عن كلامي هذا...

"وما تزال تدّعي أن تلك الذكرى كانت خامدة لأربعين عاما؟"

"نعم"

"ولم تبرُز إلا الآن؟"

"ليس بالضبط"

"دعني إذن أوضح الأمر سيد وبستر، أن تلك الحادثة المُفترضة هي محض تلفيق من خيالك، قمت بتركيبها لتبرر تعلقا رومانسيا، يبدو أنك كنت تحتفظ به، نحو موكّلتي، وهو الافتراض الذي ينبغي أن يكون في علم المحكمة أن موكلتي تجده أمرا بغيضا تماما"

"نعم، ربما لكن..."

"لكن ماذا سيد وبستر؟"

"لكننا لا نقع في الحب كثيرا في هذه الحياة. مرة، اثنتان، ثلاثة. وأحيانا لا نتبين الأمر إلا متأخرا جدا. إلا إذا لم يكن، بالضرورة،

متأخرا جدا. هل قرأت تلك القصة عن الحب الذي يزهر متأخرا في بيت العجائز في بيرنستابل؟"

"آه يا سيد وبستر، وفّر علينا مجهوداتك العاطفية. هذه قاعة محكمة تتعامل مع الحقائق، فما هي الحقائق في القضية؟"

يمكنني أن أجيب أنّي أتصور -نظريًا- أن شيئًا ما -شيئًا آخر- يحدث للذاكرة على مر الزمن. لسنوات، تعيش مع العُقد ذاتها، الحقائق ذاتها، والمشاعر ذاتها. أضغط على الزر المُسمّى فيرونيكا أو أدريان، يدور الشريط، وينسكب الهراء ذاته. الأحداث تؤكد المشاعر -أسى، شعورٌ بالظلم، وارتياح- والعكس بالعكس. لا يبدو أن هناك طريقة للوصول لشيء آخر؛ القضية مغلقة. ومن أجل ذلك تطلب تأييدا حتى وإن انقلب ليصير تناقضا. لكن ماذا لو تغيرت مشاعرك المتعلقة بأشخاص أو أحداث قديمة، حتى وإن حدث ذلك في مرحلة متأخرة من العمر؟ استثارت تلك الرسالة القبيحة داخلي شعورا بالإثم. أثرت فيّ حكاية وفاة والدي فيرونيكا -نعم، بما فيها موت أبيها- أكثر مما تصورتُ أنه يمكنه أن يحدث. شعرت بعاطفة جديدة تجاههم، وتجاهها. ثم ما لبثت أن بدأت أتذكر الأشياء المنسية. لا أعرف ما إذا كان هناك تفسير علمي لذلك: أن تعيد الحالات المزاجية الجديدة فتح المسارات العصبية المغلقة. كل ما يمكنني قوله هو أن هذا هو ما حدث، وأنه أدهشني. إذن، على كل حال -وبعيدًا عن المحكمة المنصوبة داخل ذهني-

بعثت برسالة لفيرونيكا على البريد الإلكتروني واقترحت أن نلتقي مجددا. اعتذرت عن كثرة كلامي. عبرت عن رغبتي في معرفة المزيد عن حياتها وعن أسرتها، وأنه يتوجب عليّ أن آتي إلى لندن في الأسابيع القليلة القادمة. هل تتخيل لقاءنا في نفس المكان، والزمان؟

كيف كان الناس يحتملون الأمر في الأيام القديمة حين كانت الرسائل تستغرق ذلك الوقت الطويل لتصل؟ أظن أن ثلاثة أسابيع من الانتظار وقتها توازي ثلاثة ايام من انتظار رسالة بالبريد الإلكتروني. كيف تشعر بطول الأيام الثلاثة؟ طويلة بما يكفي حتى تحسّ بوقع بالمكافأة كاملة. لم تقم فيرونيكا حتى بمسح رأس الصفحة – "أهلا ثانيةً؟" – الأمر الذي بدا لي فاتنا. لكنها لم تتلق أي إهانة، لأنها منحتني ميعادا، بعد أسبوع، في الخامسة مساء في محطة مترو غير مألوفة شمال لندن.

وجدت ذلك مثيرا. من ذا الذي سيجده غير مثير؟ صحيح أنها لم تقل "أحضر ثيابك المنزلية وجواز السفر" لكنك تصل لنقطة في الحياة تبدو فيها تغيرات الحياة محدودة بشكل مثير للشفقة. مرة ثانية، كان أول خاطر جاء لبالي هو مهاتفة مارغريت، ثم تراجعت عن ذلك. مارغريت على كل حال لا تحب المفاجآت. كانت –وما تزال– الشخص الذي يحب التخطيط للأشياء. قبل أن تحمل بسوزي كانت تقيس دورة خصوبتها وتقترح أنسب الأوقات لممارسة

الحب. وهو ما كان يضعني في حالة من التأهّب -أو العكس بالعكس، فعليا- يكون له تأثير مضاد تماما. مارغريت لا تعطيك موعدا غامضا في محطة مترو بعيدة. إنها بالأحرى تلتقي بك تحت ساعة محطة بادنجتون لغرض محدد. لا أقول إني لم أرد أن أحيا بطريقة مختلفة في الوقت، ينبغي أن يكون ذلك واضحا.

مكثت أسبوعا أحاول تحرير ذكريات جديدة لفيرونيكا، إلا أني لم أتذكر شيئا جديدا. ربما كنت أعصر ذهني بشدة. لذا، بدلا من ذلك أعدتُ تشغيل ما لدي بالفعل، تلك الصور القديمة المألوفة والأحداث الجديدة. جعلتها في ناحية الضوء، وقلّبتها بين أصابعي، محاولا معرفة ما إذا صارت تعني شيئا جديدا. بدأت أعيد تفحص نفسي صغيرا، ما أمكنني ذلك. كنت بالطبع مندفعا وساذجا -كلنا كذلك- لكني استطعت تجنب المبالغة في رؤية تلك الصفات، لأنها مجرد طريقة للإعجاب بما صرنا إليه. حاولت أن أكون موضوعيا. نسخة حكايتي مع فيرونيكا، تلك التي حملتها معي عبر السنين، كانت هي ما أحتاجه الآن. القلب الصغير الذي جرت خيانته، الجسد الصبي الذي تم التلاعب به، والحالة الاجتماعية التي تم ازدراؤها. أجاب جو هنت حين قلت مدعيا أن التاريخ هو أكاذيب المنتصرين؟ "طالما تتذكر أيضا أنه أوهام المهزومين" هل نتذكر ذلك جيدا حين يتعلق الأمر بحياتنا الخاصّة؟

حسب قول الذين ينكرون الزّمن: الأربعون لا شيء، والخمسون هي الدرجة الأولى، والستون هي أربعونَ جديدة! وهكذا. أعرف ذلك تماما: هناك الزمن الموضوعي، لكن هناك أيضا الزمن الذاتي، ذلك الذي ترتديه حول معصمك، أمام موضع جسّ النبض. وهذا الزمن الشخصي، وهو الزمن الصادق، يتم قياسه في ضوء علاقتك بالذاكرة. وهكذا، حين يحدث شيء غريب –عندما تظهر تلك الذكريات المفاجئة– فكأن الوقت في تلك اللحظة، يصير مقلوبا. كأنه، في تلك اللحظة، أمواج نهر تسير عكس تيّارها.

وصلت، بالطبع، مبكرا جدا، فنزلت المحطّة وجلست على المقعد أقرأ الجريدة المجانية، أو على الأقل أحدق فيها. ثم أخذت القطار إلى المحطة التالية حيث ارتفع بي المصعد لقاعة التذاكر في جزء من لندن مجهول بالنسبة لي. وأنا أعبر الحاجز رأيت شكلا مميزا وطريقة في الوقوف. على الفور، استدارت وسارت بعيدا. تتبعتها عبر محطة الباص إلى شارع جانبي حيث فتحت سيارة ما. ركبت في المقعد المجاور للسائق ونظرت أمامي. كانت قد أدارت محرك السيارة بالفعل.

"هذا عجيب، فأنا أيضا لديّ سيارة بولو!"

لم ترُد. لم يكن لي أن أندهش؛ فمن معرفتي بها وذكرياتي عنها، حتى وإن كان الزمن قد تجاوزها، لم يكن الحديث عن السيارات

هو الحديث المفضل لفيرونيكا، ولا المفضل لي، حتى وإن كان بإمكاني شرح ذلك أفضل.

كان الجو ما يزال حارا. فتحت النافذة. نظرت نحوي متجهّمة فأغلقت النافذة. حسنا، قلتُ بيني وبين نفسي.

"كنتُ أفكر في ذلك اليوم حين ذهبنا لمشاهدة شاطئ سيفرن."

لم تُجب.

"هل تذكرين ذلك؟" هزّت رأسها. "ألا تذكرين؟ كانت مجموعة منّا، ذهبنا إلى قرية منسترورث. كان القمر..."

"إنني أقود السيارة" قالت.

"حسنا" إذا كان هذا ما تريده. كانت النزهة اقتراحها على كل حال: نظرت من النافذة بدلا من ذلك. محلات الخردوات، المطاعم الرخيصة، محال المراهنات، الطوابير الواقفة أمام ماكينات سحب النقود، النساء ذوات الطيات السمينة المتهدلة من جوانب ملابسهن، أكوام القمامة، مجنون يصرخ، أم بدينة ومعها ثلاثة أطفال بدناء، وجوهٌ من كل الأعراق، شارع يصلح لكل الأغراض: إنها لندن العادية.

بعد عدة دقائق دخلنا منطقة شبه راقية: بيوت معزولة، حدائق أمامية، وتل. ركنت فيرونيكا السيارة وأطفأتها. فكّرتُ، حسنا، هذه لعبتك - سأنتظر القواعد أيا كانت. إلا أن جانبا مني كان يفكر، اللعنة، لن أتوقف عن أكون ذاتي لمجرد أنكِ رجعتِ لحالتك

المزاجية على جسر ووبلي.

"كيف حال الأخ جاك؟" سألت بابتهاج. كان يمكنها على الأقل أن تجيب "إنني أقود السيارة" على ذلك السؤال.

"جاك هو جاك" أجابت دون أن تنظر إليّ.

حسنا، هذا أمر مُبرهنٌ فلسفيا كما اعتدنا أن نقول، أيام أدريان.

"هل تذكرين..."

"إنني أنتظرُ" قاطعَتني.

هذا جيد جدا، فكرتُ. في الأول نلتقي، ثم "إنني أقود السيارة"، ثم "إنني أنتظر". ماذا بعد ذلك؟ أنّي أتسوق، أطبخ، آكل، أشرب، أحتكّ، استمني، أجامع؟ أشك في ذلك، لكن ونحن جالسين جنبا إلى جنب، رجل أصلع وامرأة مربية، أدرك أنه كان عليّ أن احدد الموقف بالضبط. كانت فيرونيكا الأكثر عصبية. وبينما كنتُ عصبيا من أجلها كان من الواضح أنها ليست عصبية من أجلي. كنت أبدو مثل شيء ثانوي، مثل إزعاج اضطراري. لكن، لماذا كنت اضطراريا؟ جلست وانتظرت. تمنيت لو أني لم أكن قد تركت تلك الجريدة المجانية في محطة القطار. تساءلت لماذا لم آت هنا بسيارتي. ربما لأني لم أعرف قواعد رَكن السيارات هنا. كنت بحاجة للشرب، وبحاجة للتبول. فتحت النافذة، ولم تعترض فيرونيكا هذه المرة.

"انظر"

نظرتُ. ثمّة مجموعة من الأشخاص تعبر الرصيف إلى السيارة،

جهتي. عددت خمسة منهم. من بينهم رجل يرتدي، رغم حرارة الجو، عدة طبقات من الملابس من قماش التويد السميك، ومعطفًا وشيئًا أشبه بخوذة الصيّادين. كان معطفه وقبعته مُحمّلين بنياشين معدنيّة، قرابة الثلاثين أو الأربعين كما أظن. بعضها يلمع في الشمس. وكانت هناك سلسلة ساعة معدنيّة تتدلى من جيب معطفه. تعبيراته مرحة، بدا مثل شخص ذي مهمّة غامضة في سيرك أو معرض ما. من ورائه جاء رجلان، الأوّل له شاربٌ أسود ومشية متموّجة؛ والثاني ضئيل ومشوّه وله كتف أعلى من الآخر، كان قد توقّف ليبصق داخل الحديقة. يقف وراءهم رجل طويل، أبلَه، يرتدي نظّارة ويمسك بيد سيّدة هنديّة بدينة.

"الحانة،" قال الرجل ذو الشارب وهم يقتربون.

"لا، الحانة لّا" أجاب الرجل ذو النياشين.

"الحانة" قال الرجل مُصرًا.

"البقالة" قالت المرأة.

كانوا جميعا يتحدثون بصوت عالٍ، كأطفال خرجوا لتوّهم من المدرسة.

"محل" كرر الرجل غير المتوازن، وهو يميل ناحية الشجيرات.

كنت أنظر بعناية قدر استطاعتي، فذاك ما يُفترض بي فعله. كانوا جميعًا، حسب تقديري، بين الثلاثين والخمسين من أعمارهم، غير أنّهم كانوا يحملون سماتٍ ثابتة غير متعلّقة بعُمرٍ معيّن. كما كان

يسيطر عليهم تهيّب واضح من كل شيء غيرهم، تؤكّده الطريقة التي كان الزوجان يمسكان بها كفّي بعضهما: لم تكن تبدو عاطفية بقدر ما كانت دِفاعًا عن أنفسهم ضدّ العالم. مشوا عدّة خطوات بعيدًا دون النظر نحو السيارة. ما لبث أن جاء شاب يرتدي بنطالًا قصيرًا وقميصًا دون ياقة. لم أستطع أن أحدّد ما إذا كان شخصًا يقوم برعايتهم، أو لا علاقة له بالأمر.

حلّت فترة صمت طويلة. كان واضحا أنه يتوجب عليّ القيام بالأمر كله.

"إذن؟"

لم تُجِب. لعلّ السؤال كان عامًّا أكثر ممّا ينبغي.

"ماذا بشأنهم؟"

"ماذا بك؟"

لم تبدُ الإجابة متعلّقة بالسؤال، مع تلك النبرة الحادة؛ لذا واصلتُ...

"هل كان ذلك الشاب الصغير معهم؟"

صمت.

"هل هم ضمن العاملين في الخدمة الاجتماعية أو شيئًا من ذاك القبيل؟"

ارتطمت رأسي بخلفية المقعد حين جذبت فيرونيكا ذراع القيادة فجأة. دارت بسرعة حول عمارة أو اثنتين، متجاوزة المطبات كأنها في

عرض لقفز الحواجز. كان تغيير السرعات، أو – بالأدق – انعدامه، مفزعا. استمر الوضع كذلك أربع دقائق، ثم انحرفت إلى ساحة لركن السيارات، صاعدة الرصيف الحجريّ بعجلة السيارة الأمامية قبل أن ترد للوراء ثانية.

وجدت نفسي أفكر: كانت مارغريت دائما سائقة كيّسة. ليس قيادتها آمنة فحسب، لكنها تعرف كيف تعامل السيارة بشكل جيّد. أستعيد تلك الأيام حين كنت أتعلم القيادة، كان المعلم يقول إنّك حين تغير السرعات، فإن تحريك ذراع القيادة ونقل التروس يجب أن يتم بلطف وبشكل تدريجي إلى درجة أن رأس الراكب لا تتحرّك سنتيمترًا واحدًا عن موضعها. كنت ملتزمًا بذلك وقتها، وكنت أوجّه الملاحظات حين أركب مع أحد لا يلتزم بذلك. هكذا، لو عشتُ مع فيرونيكا، لكنت انتهيت إلى حضور جلسات علاج طبيعي كلّ أسبوع بالنّظر إلى أسلوبها في السّياقة.

"أنت لم تُدرك الأمر، أليس كذلك؟ لم تفهم، ولن تفهم"

"لكن أحدًا لم يمنحني أيّ مساعدة لأفهم!"

ثم رأيتهم –أيًّا كانوا– قادمين نحوي. لقد كان ذلك جزءًا من المناورة: أن تتجاوزهم ثانية. كنّا بجوار بقالة ومغسلة، بينما تقع حانة على الجهة الأخرى. كان الرجل ذو النياشين –الصيّاح– تلك هي الكلمة التي كنتُ أبحث عنها، (الصيّاح هو الرّفيق المبتهج عند مدخل أحد المعارض والذي يشجّعك للدخول ومشاهد السيّدة ذات اللحية أو

دبّ الباندا ذي الرّأسين) – كان ما يزال يقود المجموعة. الآخرون الأربعة يُحيطون بالشّاب ذي البنطال القصير؛ لذا، يصير من المحتمل أنه معهم، مشتغل بالخدمة الاجتماعية وما إلى ذلك. ثم سمعته يقول "لا، كين. لا حانة اليوم. الحانة ليلة الجمعة"

"الجمعة" كرّر الرجل ذو الشارب.

كنت واعيًا أن فيرونيكا خلعت حزام الأمان الخاص بها وفتحت الباب. وحين هممت بفعل ذلك قالت: "ابق هنا!" وكان عليّ أن أطيعها مثل كلب.

كانت جدلية البقالة/الحانة ما تزال قائمة. وحين لاحظ أحدهم فيرونيكا، خلع الرجل ذو المعطف السّميك قبّعته ووضعها أمام صدره، ثم انحنى لها، بينما أخذ الرفيق غير المتوازن يقفز هنا وهناك حولهم. ابتسم فتى الخدمة الاجتماعية وصافح فيرونيكا. وخلال لحظة واحدة باتت مُحاطة بذاك الجمْع غير الخطِر. ما لبثت السيدة الهنديّة أن أمسكت يد فيرونيكا، بينما وضع الرجل الذي كان يريد الذهاب إلى الحانة يده على كتفها. لم تبدُ أنها منزعجة من ذاك الاهتمام كلّه على الإطلاق. شاهدتُ ابتسامتها لأوّل مرّة ذاك اليوم. حاولت أن أستمع لما يقال، لكن الأصوات كانت متداخلة.

ثم رأيت فيرونيكا تستدير وسمعتها تقول: "سأعود عاجلا"

"عاجلًا" كرر اثنان أو ثلاثة منهم.

واصل الرجل غير المتوازن التقافز في مكانه، بينما منحها الرّجل

الضخم ابتسامة بلهاء وهو يصيح "مع السلامة، ماري"! تتبّعوها إلى السيّارة، ثم لاحظوا وجودي في مقعد الراكب الأمامي فتوقفوا قليلا. أربعة منهم راحوا يلوّحون بحماس، بينما اقترب الرجل ذو المعطف السميك وانحنى بأدب مرّة أخرى، وهو ما يزال قابضا على قبعته أمام صدره. مدّ لي يده عبر النافذة فصافحتها.

"نحن ذاهبون إلى البقالة" قال لي بلهجة رسمية.

"ماذا ستشترون" أجبته بإجلال مماثل.

"أغراضًا نحن في حاجة إليها" أجاب في النهاية. هز رأسه وأضاف شارحًا "أغراضًا ضرورية"

ثم انحنى انحناءته الرسمية ثانية، واستدار، ووضع قبعته المثقلة بالنياشين على رأسه.

"يبدو صديقًا لطيفًا" قلتُ معلّقًا.

لكنها كانت تحرّك ذراع القيادة بيد وتلوح لهم باليد الأخرى. لاحظت أنها كانت تتعرق. نعم كان الجو حارًا، لكن ليس إلى تلك الدرجة.

"لقد سُعدوا برؤيتكِ"

أدركتُ أنها لن ترد على أي شيء ممّا أقول، وأنها أيضا غاضبة، مني بالطبع، لكن من نفسها أيضًا. لا يمكنني أن اقول إني شعرت وكأني لم أرتكب أيّ خطأ. كنت على وشك أن أفتح فمي حين لاحظت أنها تُضاعف سرعة السيارة، وخطر على بالي أنّي ربما عضضت على لساني من أثر تلك السرعة. انتظرتُ ريثما تجاوزَت المطبّات وقلت:

"تُرى كم نيشانا تحمل بذلة ذلك الفتى؟"

صمت. تغيير السرعة.

"هل يعيشون جميعا في البيت ذاته؟"

صمت. تغيير السرعة.

"إذن، فهم يذهبون للحانة كلّ ليلة الجمعة؟"

صمت. تغيير السرعة.

"نعم، لقد ذهبنا إلى منستر ورث معا. كان القمر مكتملا في تلك الليلة"

صمت. تغيير السرعة. كنا قد وصلنا الطريق السريع، ولا شيء سوى الأسفلت الذي يفصلنا عن المحطة، كما أذكر.

"هذا جانب مثير من البلدة" ظننت أن استفزازها ربما يؤدي الغرض، أيّا كان الغرض: أنْ تُعاملها كأنّها شركة تأمين كما فعلتُ من قبل.

"نعم، أنت مُحقّ، ينبغي أن نعود عاجلا"

"على كل، كان لطيفا أن ألتقي بك على الغداء ذاك اليوم"

"هل هناك عناوين معينة ترشحينها لشتيفان تسفايج؟"

"هناك كثير من البدناء هذه الأيام. السُّمنة، تلك أحد التغيّرات الحديثة، أليس كذلك؟ لا يمكنني أن أتذكر أي شخص بدين في أيّامنا في بريستول"

"لماذا دعاك ذلك الفتى الأبله ماري؟"

على الأقل كنت قد حللت حزام الأمان الخاص بي. هذه المرة، ركنَت فيرونيكا السيارة بعد أن تجاوزَت الرصيف بسرعة تتجاوز العشرين ميلًا في الساعة، ثم ضغطت المكابح بقوة.

"اخرُج" قالت مُحدقة للأمام.

هززت رأسي. دفعت حزام الأمان ونزلت من السيارة على مهل. تركت الباب مفتوحا أطول مما ينبغي، لأضايقها للمرة الأخيرة، وقلت: "ستُهلكين إطارات السيارة لو بقيت في القيادة بتلك الطريقة" واهتزّ الباب في يدي وهي تنطلق بالسيارة.

جلستُ في القطار دون أن أفكر على الإطلاق، فعلًا، مُكتفيًا بالإحساس بما جرى. لم أكن أفكر حتى في إحساسي. في تلك الأمسية فحسب بدأتُ أدرك ما جرى.

كان السبب الأساسي لشعوري بالحماقة والمهانة -والذي أطلقت عليه منذ عدّة أيام "الأمل الأبدي للنفس الإنسانية"، وقبل ذلك "غواية التغلّب على ازدراء شخص ما"- هو أنّي متأثر بدرجة أكبر مما تصورتها، فلا أظن أنّي أعاني من الغرور أو الخيلاء. وذاك التصميم على استعادة تَركة تخصّني تحول ليصير أمرًا أكبر، أمرًا اخترق حياتي بأكملها، عبر الزمن وعبر الذاكرة، والرغبة. ظننتُ فعلًا - عند مستوى معيّن للوجود- أنّه بإمكاني العودة إلى الوراء وتغيير بعض الأمور، وأنه بإمكاني جعل الدماء تجري في الاتجاه المعاكس.

كان لديّ ما يكفي من الغرور لأظنّ –حتى لو لم أعبّر عن الأمر بوضوح– أنه بإمكاني جعل فيرونيكا تحبّني، وأنه من الضروري أن أفعل ذلك. حين قالت في تلك الرسالة "أن نغلق الدائرة" فشلتُ في إدراك النغمة الساخرة في كلامها وتصوّرت أنها دعوة، دعوة ترحيب في الغالب.

كان سلوكها معي، كما أراه الآن، متناسقًا، ليس في الشهور الماضية فحسب لكن على مدى الأعوام السابقة كذلك. وجدتني أسعى وراءها، لقد فضّلَت أدريان عليّ، واعتبرَت دومًا أنّ أحكامها بشأني صحيحة. كان ذلك كما أدرك الآن، مُبرهنًا على صحّته سلفًا بشكل فلسفيّ أو بأي شكل آخر. لكن، دونما فهم لدوافعي، كأني أردت أن أثبت لها، حتى في تلك المرحلة المتأخرة، أنها أخطأت في حكمها عليّ. أو بالأحرى أن رأيها المبدئي فيّ كان خاطئًا، حين كنا نتعرف سويا على قلبينا وجسدينا، حين عبّرت عن إعجابها بمكتبتي، وحين كانت معجبة بي لدرجة أنها أخذتني لبيتها. تصوّرت أنه بإمكاني التغلب على الازدراء لينقلب الشعور بالمرارة إلى شعور بالذنب، لا يلبث أن يتم غفرانه. جرى إغوائي، نوعا ما، بفكرة أنه بإمكاننا أن نستأصل كياننا المنفصل: نُقصّ ونلصق الشريط الممغنط الذي تم تسجيل حياتنا عليه، أن نعود لمفترق الطرق ونختار الطريق الذي لم يُطرَق كثيرًا، أو بالأحرى، الطريق الذي لم يجتزه أحد من قبل. أيها المسنّ الأبله، قلتُ لنفسي. وليس أكثر بلاهة من المسنّ الأبله: هذا ما كانت

أمي الراحلة تتمتم به حين تقرأ تلك القصص في الجرائد عن الرجال المسنّين الذي يقعون في حب فتيات صغيرات، ويدمّرون زواجهم مقابل ابتسامة مزيفة: شَعْرٌ خارجٌ توًّا من ماكينة الكوافير، أو نهدين مشدودين. لم تعبّر عن الأمر وقتها بتلك الطريقة، ولا أجدُ عُذرًا لنفسي كي أقع في الابتذال؛ فلم أفعل ما يفعله الرجال الآخرون في سنّي. كلا، بل كنتُ أكثر شذوذًا: أحاول ترقيع آمالي العاطفية المثيرة للشفقة نحو أبعد شخص في العالم يمكنه أن يتقبّل تلك الآمال.

كان الأسبوع التالي هو أحد أكثر الأسابيع في حياتي شعورا بالوحدة. بدا وكأنه لا شيء هناك لانتظاره. كنت وحدي بين صوتين يترددان بوضوح داخل رأسي: مارغريت قائلة "توني، أنت بمفردك على الطريق الآن" وصوت فيرونيكا "أنت لم تفهم الأمر، لم ولن تفهم". كنت أعرف أن مارغريت لن تشمت بي لو اتصلت بها وأعرف أنها ستجيب بسعادة دعوتي للغداء، ثم نعود بالضبط كما كنّا قبلها. أشعرني ذلك بالوحدة. من الذي قال إنه كلما طالت حياتنا، كلّما قلّ فهمُنا؟

لكن رغم كل شيء، أظل أكرر أنّي أتميّز بحمل غريزة للبقاء نادرة، للحفاظ على نفسي. الإيمان أن لديك غريزة من هذا النوع مفيد، تماما مثل أن تكون لديك هذه الغريزة فعلا؛ لأنها تعني أنك ستتصرف بالطريقة ذاتها. وهكذا، بعد فترة، استعدت نفسي ثانية. كنت واعيا أنه ينبغي عليّ العودة لما كنت عليه قبل أن تسيطر عليّ

تلك النزوة السخيفة العجوز. لا بد أن أعتني بشؤوني، أيًّا كانت، بعيدا عن ترتيب الشقة وإدارة المكتبة في المستشفى المحلّي. أوه، نعم، يمكنني أن أنتبه كذلك لاستعادة أغراضي.

"عزيزي جاك" كتبت "أتساءل ما إذا كان بإمكانك أن تمنحني بعض المساعدة بخصوص فيرونيكا. أخشى أني أجدها غامضة، تماما مثل تلك الأيام القديمة. حسنا، هل نتعلم شيئا من الماضي؟ على أي حال، لم نصل لشيء بخصوص مذكرات زميلي القديم والتي تركتها لي والدتك في وصيتها. هل لديك من نصيحة بخصوص ذلك؟ أيضا، ثمة أمر آخر محير. كنتُ قد تناولت غداء مبهجا معها في البلدة قبل أسبوع. ثم أعطتني موعدا في الخط الشمالي أحد الأيام بعد ذلك. كان يبدو أنها تريد أن تُريني أحد مراكز العناية بالمعاقين، ثم غادرت بعد أن فعلت ذلك. هل يمكنك إلقاء بعض الضوء على ذلك؟ أتمنى لك كل الصحة والعافية. مع احترامي، توني. و."

تمنيت ألا يبدو الودّ في الرسالة مزيفا له كما بدا لي. ثم كتبت للسيد جنل، طالبا منه أن يتصرف بالنيابة عني في قضية وصية السيدة فورد. أخبرته –بثقة– أن معاملاتي مع ابنة الموصية كانت غير مستقرة، وأني أظن الآن أنه من الأفضل لزميل مهني أن يكتب للسيدة ماريوت بشأن سرعة إنهاء تلك القضية.

سمحت لنفسي بزيارة حنين قصيرة. تذكرت فيرونيكا وهي ترقص، شعرها يغطي وجهها. تذكرتها وهي تقول لأسرتها "سأوصل توني

لغرفته" هامسةً في أذني "نَم نوم المسحور". وكيف أنّي هرعتُ فورًا إلى الحوض واستمنائي حتى قبل أن تُكمل هي نزولها الدّرج. تذكّرت باطن رسغي اللامع، وكُمّ القميص الذي شمرته حتى الكوع.

كتب لي السيد جنل أنه سيفعل ما طلبت. لم يرد الأخ جاك أبدا.

*

لاحظت –حسنًا، كان عليّ أن ألاحظ– أنّ ضوابط رَكن السيارات لا تطبّق بحَسْمٍ إلا بين العاشرة ومنتصف النهار. ربما ليمنعوا رُكّاب القطارات من القيادة بسياراتهم إلى ذلك الجزء البعيد من البلدة، ثمّ يُلقون بها هناك في النهار ليستقلّوا القطار. هكذا، قررت أن أستقلّ سيارتي في ذلك الوقت: سيارة فولكس فاجن بولو؛ والتي ستدوم إطاراتها لفترة أطول من إطارات سيارة فيرونيكا. بعد ساعة من الغسيل والتنظيف وغيره في المحطة، وجدتني في الموضع ذاته، أركن السيارة حيث كنتُ من قبل، مواجها الانحناء الطفيف لذلك الشارع في الضاحية، وشمس الأصيل تقبض على الغبار المتناثر حول السياج. كانت مجموعات من أطفال المدارس في طريق العودة للمنزل، الأولاد قمصانهم خارج بناطيلهم، والبنات يرتدين التنانير القصيرة بشكل مثير. كثيرون منهم يمسكون بالهواتف المحمولة، بعضهم يأكل وقليل منهم يدخنون. حين كنا في المدرسة

قيل لنا أنه طالما ما تزال ترتدي الزي المدرسي فإن عليك التعامل بطريقة تنعكس بشكل إيجابي على تلك المؤسسة؛ ومن ثمّ، لا طعام ولا شراب في الشارع، أمّا لو قُبض على أحدنا وهو يدخن فكان يتم ضربه. كذلك لم تكن مخالطة الجنس الآخر مسموحة بذلك القدر؛ كانت مدرسة البنات المرتبطة بنا تقع في حي آخر وتترك طالباتها يغادرن خمسة عشرة دقيقة قبل السماح للأولاد بذلك، فيمنحوهنّ وقتا للإفلات من نُظرائهم الذكور، الشهوانيين المفترسين. جلستُ هناك متذكرا كل ذلك، مسجلا الاختلافات، دون التوصل لنتائج. دون موافقة أو استهجان. كنت لا مباليا؛ فقد أنكرتُ على نفسي أن يكون لي رأي أو تقييم. كل ما كنت مهتما به هو لماذا أُخذتُ إلى هذا الشارع منذ أسبوعين. لذا، جلست وقد فتحت نافذة السيارة، أنتظرُ.

بعد قرابة الساعتين، استسلمتُ. عدت في اليوم التالي، دون نجاح يذكر. ثم قدت للشارع الذي تقع فيه الحانة والبقالة، وركنت في الخارج. انتظرتُ، ذهبت إلى البقالة واشتريت بعض الأشياء، انتظرت بعض الوقت ثم عدت للبيت. لم يكن لديّ أدنى شعور بضياع الوقت؛ بل على العكس، كنت أشعر أن هذه هي وظيفة الوقت الآن. على أي حال لقد اكتشفت أن البقالة مفيدة جدًّا؛ إنها واحدة من تلك الأماكن التي تحوي كل شيء بدءا من المُشَهّيات وحتى الخردوات البسيطة. في تلك الفترة اشتريت خضروات وبودرة

لغسالة الأطباق، شرائح لحم ومناديل للمرحاض. استخدمت ماكينة سحب النقود واشتريت مخزونا من البيرة. بعد عدة أيّام بدؤوا ينادونني "يا رفيق"

فكّرتُ لحظةً بالاتصال بقسم خدمات المجتمع في المنطقة الإدارية وسؤالهم ما إذا كان هناك بيت لرعاية المعاقين يضم رجلا مغطى بالنياشين، لكني تشككت في أن يصل بي ذلك لأي شيء. سأرتبك مع أول سؤال، لماذا تريد أن تعرف؟ لم أكن أعرف لماذا أريد أن أعرف. لكن كما قلت، لم يكن لديّ أدنى شعور بالتعجّل. ليس الأمر كالضغط على ذهنك لتستدعي ذكرى معينة. لو لم أضغط عليه – ماذا؟ فسيتكفل الزمن بالأمر، ربما يظهر حلّ ما إلى السطح. خلال فترة زمنية كافية كنت قد تذكرت الكلمات التي تجاوزتها عفوا "لا يا كين، لا حانة اليوم. ليلة الجمعة هي ليلة الذهاب للحانة" وهكذا، قدتُ السيارة في الجمعة التالية وجلست مع جريدتي في حانة ويليام الرابع. كانت واحدة من تلك الحانات التي ارتقت بفعل الضغوط الاقتصادية. كان ثمة قائمة للطعام تضم مشويات وجهاز تلفزيون يبثّ قناة البي بي سي للأخبار، فضلا عن سبورة سوداء في كل مكان: واحدة تعلن عن مسابقة رهانات أسبوعية وأخرى عن نادٍ شهري للكتب، وثالثة عن تجهيزات رياضية لمباريات مقبلة، بينما حملت الرابعة جدولا تصوريا مثاليا لليوم، لا بد أنه مستنسخ من أحد كتب التنمية الذاتية للفطنة والحكمة. شربت على مهل وأنا

أحل الكلمات المتقاطعة، غير أن أحدا لم يأتِ.

في الجمعة التالية، فكرتُ: ربما يجدر بي أن أتناول العشاء هناك. وهكذا، طلبت سمكا مشويا مع بطاطا مُقطّعة يدويًا وكأس نبيذ أبيض كبير. لم يكن سيئا على الإطلاق. وفي الجمعة الثالثة، وأنا أقطع بالشوكة المعكرونة التي طلبتها بجُبنة الغورغونزولا وصلصة البندق، دخل الرجل غير المتوازن والفتى ذو الشارب. أخذا مقعدَيهما ببساطة، بينما تحرك النّادل وكأنه معتاد على طلباتهما، وأحضر لكلٍّ منهما نصف زجاجة بيرة أخذ كل منهما يشربها في تأمل. لم ينظرا حولهما، دع عنك الاتصال المباشر بالبصر. وفي المقابل، لم يلاحظ وجودهما أحدٌ من الجالسين. بعد حوالي عشرين دقيقة جاءت سيدة سوداء ذات طابع أمومي، دخلت الحانة ودفعت الحساب وذهبت بالرجلين في رفق. لاحظت الموقف بحياد وانتظرتُ. كان الوقت في صالحي، نعم كان كذلك. عادة ما تقول الأغاني الحقيقة.

كنت قد صرت زبونا دائما للحانة، وكذلك المحل. لم أشترك في نادي الكتب ولا في مسابقة الرهانات، لكني جلست بانتظام إلى الطاولة الصغيرة جوار النافذة ومارست الاختيار من بين محتويات قائمة الطعام. ما الذي كنت أرجو الوصول إليه؟ من المحتمل الدخول في حوار ما مع القائم بالخدمة الاجتماعية والذي كنت قد رأيته

ذاك اليوم يوصل مجموعة الخمسة أشخاص؛ أو ربما مع الرجل ذي النياشين والذي بدا أكثرهم لطفا وقابلية للكلام. كنت صبورا تمام دون أن اشعر أنّي كذلك؛ لم أكن أعدّ الساعات. وهكذا، ذات مساء وجدت مجموعة الخمسة يقتربون تتقدمهم المرأة نفسها. لسبب ما لم أكن مندهشا. دخل الاثنان السابقان إلى الحانة أما الثلاثة الباقون فانطلقوا إلى البقالة.

قمتُ تاركا الجريدة والقلم الجاف على الطاولة؛ كعلامة أني سأعود ثانية. عند مدخل البقالة تناولت حقيبة بلاستيكية صفراء وتجولت على مهل. في نهاية الممر كان ثلاثتهم مجتمعين للاختيار أمام مساحيق التنظيف، يتجادلون بحماس حول أيها ينبغي عليهم شراؤه. كانت المساحة ضيقة، وقلت بصوتٍ عالٍ "عن إذنك" وأنا أقترب. ضغط الرفيق الضخم ذو النظارات نفسه فورا نحو رفوف أدوات المطبخ، وظلوا جميعا ساكنين. وأنا أعبر، نظر الرجل ذو النياشين في عينيّ. "مساء الخير" قلتُ مبتسما. استمر ينظر إلي، ثم أحنى رأسه محيّيا. تركت الموقف كذلك وعدتُ للحانة.

بعد عدة دقائق انضم الثلاثة إلى لآخرَين الجالسين. ذهبت المرأة القائمة برعايتهم وطلبت ما يشربونه. كنت مندهشا من حقيقة أنهم كانوا صاخبين وطفوليين في الشارع، ومهذبين وهامسين في الحانة والبقالة. جاءت المشروبات للقادمين الجدد. ظننت أني سمعت كلمة "عيد ميلاد" لكن لعلي أخطأت. وجدتُ أنه الموعد

المناسب لطلب الطعام. طريقي إلى الحانة سيجعلني أقرب إليهم؛ لم تكن لديّ خطة واضحة. كان الثلاثة الذين قدموا لتوهم من المحل ما يزالون واقفين، واستداروا قليلا مع اقترابي. ألقيت تحيّتي مجددًا "مساء الخير" بابتهاج للرجل ذي النياشين، والذي استجاب لي من قبل. كان الفتى الضخم واقفا أمامي وكنت على وشك تجاوزه حين توقفت وتأملته مليّا. كان طوله يزيد عن المائة وثمانين سنتيمترا، له بشرة شاحبة ويرتدي نظّارات سميكة العدسات. شعرت أنه يرغب في الاستدارة ثانية، لكنه بدلا من ذلك فعل شيئا غريبا؛ خلع نظارته وحدق في وجهي عن قرب. كانت عيناه بنّيتين لطيفتين.

ودون تفكير وجدتني أقول له "أنا صديق ماري"

راقبته وهو يهمّ بالابتسام، ثم أخذ يضطرب. استدار بعيدا وأخذ يُصدر أنينًا مكتوما قرب المرأة الهندية، ثم ما لبث أن أخذ يدها. واصلت حركتي نحو الحانة، جلست على طرف المقعد وبدأت في تأمل قائمة المشروبات. بعد قليل شعرت بالمرأة السوداء القائمة على رعايتهم جواري.

"أنا آسف" قلتُ "أرجو ألا أكون قد ارتكبت خطأً ما"

أجابت "لست واثقة من ذلك. لا ينبغي أن تحدق فيه، لا سيما الآن"

"لقد التقيت به مرة من قبل، مع ماري، حين جاءت لزيارتهم ذات مساء. أنا صديقها"

نظرت إليّ وكأنها تحاول تقييم دوافعي وصدقي ثم قالت "إذن لا بد أنك تتفهم الأمر. أليس كذلك؟"

"نعم. إنّي أتفهمه"

كنت في حقيقة الأمر قد فهمت، ولم يكن هناك داع للكلام مع الرجل ذي النياشين أو غيره. كنت قد عرفت الآن.

لقد رأيته في وجهه. غالبا ما يكون ذلك صحيحا، أليس كذلك؟ على الأقل بالنسبة لي. نستمع لما يقوله الآخرون، نقرأ ما يكتبونه، هذا هو دليلنا، هذا هو ما يؤيد كلامنا. إلا أن الوجه إذا ما تناقضت تعبيراته مع معنى كلمات المتحدث، فإننا نولي ثقتنا للوجه. التفاتةٌ إلى عينيه، تضرّج الوجنتين، ارتعاشة عضلات الوجهه... ثم ما تلبث أن تدرك كل شيء. تدرك النفاق أم الادعاء الكاذب، وتقف الحقيقة واضحة إزاءنا.

غير أن الأمر هنا كان مختلفا. لم يكن هناك أي تناقض: رأيته بوضوح في وجهه. في عينيه، لونهما وتعبيرهما، في خدّيه، شحوبهما وتكوينهما. طوله وتكوينه العظمي والعضلي الذي شكّل ذلك الطول. هذا ابنُ أدريان. لم أكن بحاجة لشهادة ميلاد ولا لاختبار حمض نووي. لقد رأيته وشعرت به. كما أن التواريخ كانت بالطبع متناسقة. لو كان له ابن فسيكون في هذا العمر الآن.

كان رد فعلي الأول، لأعترف، أنانيا. لم أستطع التوقف عن التفكير

فيما كتبته في تلك الرسالة مخاطبا فيرونيكا "... يعتمد هذا على قدرتك أن تحملي منه قبل أن يكتشف أنك مملّة..." لم أكن أعني ذلك وقتها؛ كنت أخبط بقدمي فحسب محاولا أن أسبب لها الأذى. في حقيقة الأمر، كنت أخرج مع فيرونيكا، كنت أعدّها أي شيء – غامضة، جارحة، فاتنة– لكنها لم تكن مملّة أبدا. بل وحتى في اتصالي الأخير بها، ورغم أن الصفات يمكن أن يتم تحديثها: عنيدة، متكبرة، مرهقة، إلا أنها كانت – وبطريقة فاتنة كذلك – غير مملة أبدا. وهكذا، كانت دعوى كاذبة بقدر ما هي موجعة.

غير أن كل ذلك كان مجرد جانب من الأمر فحسب. حين كنت أحاول تدميرهما، كتبت "جانبٌ مني يتمنى أن يكون لكما طفل، لأنني أؤمن تماما بانتقام الزّمن، نعم، حتى الجيل التالي والجيل الذي يليه. كما يحدث في "كتب الآداب العظيمة" ينبغي أن يتّجه الانتقام نحو الأشخاص المناسبين. بمعني: أنتما الاثنان،" ثم أضفتُ "لذا لا أتمنى لكما ذلك، فلن يكون من العدل أن نوجع جنينًا بريئا بحقيقة أنه ثمرة صلبيكما، لو غفرتما لي شاعريّتي." الشعور بالإثم، لغويا، هو تكرار الألم مرة ثانية: ألا يبدو الشعور كذلك؟ تخيل قسوة الألم وأنا أكرر قراءة تلك الرسالة. بدت وكأنها لعنة قديمة نسيتها تماما تطل برأسها من جديد. بالطبع لا أؤمن –ولم أؤمن– باللعنات: الكلمات التي يترتب عليها أحداث معينة. لكن تسمية شيء وحدوثه فورًا –تمنّي شيء ما شرير، ثم

تحقّقه- ما يزال له مفعول مُرعب وغامض. حقيقة أنّي اطلقتُ اللعنة "شابًا" ثم شهدتُها "مُسنًّا" لها شعور غريب. كان الأمر منقطع الصلة بشكل وحشي لو أنه قبل أن يحدث كل ذلك، أخبرني أحدهم أن أدريان بدلا من أن يقتل نفسه، تزوج فيرونيكا بشكل واقعي، أنهما أنجبا طفلا، ثم أطفالا آخرين، ثم صار لهما أحفاد، لكنت قلت: حسنا، لكل حياته الآن، أنت مضيت في طريقك وأنا مضيت في طريقي، ودون أي مشاعر سلبية. وها هي الكليشيهات الفارغة تنسحق أمام الحقيقة الراسخة لما حدث بالفعل. انتقام الزمان من الجنين البريء. فكرت في ذلك الرجل المسكين التالف الذي يتحرك حولي بين الحانة والبقالة ضاغطا وجهه على رفوف أدوات المطبخ وأكداس ورق التواليت ليتجنب وجودي. حسنا، غريزته صائبة هذه المرة: أنا الرجل الذي ينبغي أن يدير له ظهره. لو أن الحياة تمنح المكافآت، فسيكون نصيبي منها أن أصير منبوذا.

منذ أيام قليلة فحسب كنت أهيم في خيالاتي الغائمة مع فيرونيكا، متذكرا طوال الوقت أنّي لا أعرف شيئا عن حياتها في الأربعين عاما الماضية منذ التقينا آخر مرة. لديّ الآن بعض الإجابات عن الأسئلة التي لم أسألها: لقد حملَت طفلَ أدريان، ثمّ... مَن يدري؟ لعلّ صدمة انتحاره أثّرت على الطفل في رحمها؟ لقد ولدَت طفلًا تم تشخيصه في مرحلة ما بأنّه... ماذا؟ غير قادر على التواصل بشكل مستقل مع المجتمع؟ في احتياج مستمرّ للدّعم اقتصاديًا وعاطفيًا؟

أفكر، متى تم تشخيص حالته تلك؟ بعد مولده مباشرة؟ أم أن هناك فترة من السكون الخادع استمرت عدة سنوات استطاعت فيها فيرونيكا الحصول على راحة تحميها من الانهيار؟ لكن بعد ذلك، كم من الوقت استمرت تضحي بحياتها من أجله، وربما العمل في مهنة متواضعة بينما هو في مدرسة لذوي الاحتياجات الخاصة؟ ثم بعد ذلك، من المحتمل أن مشاكله صارت أكبر وأكثر صعوبة، وأن الأمر في النهاية صار مريعا حتى اضطرت لتركه في دار الرعاية تلك. أتخيل كيف بدا ذلك الشعور؛ أتخيل الفقد، والشعور بالفشل، والندم. وها أنا ذا، أشتكي حين تنسى ابنتي إرسال رسالة بالبريد الإلكتروني. أتذكر كذلك الأفكار البغيضة التي كانت تسيطر عليّ منذ لقائي بفيرونكيا للمرة الأولى عند جسر ووبلي. فكرتُ أنها بدت شعثاء ورثّة الثياب، فكرت أنها عدوانية، عسيرة الفهم ومرهقة. بينما في الواقع كنتُ محظوظًا أنها منحتني ذلك الوقت من النهار. وكنت أتوقع أن تعطيني مذكرات أدريان؟ لو كنت مكانها لكنتُ أحرقتها أيضًا، كما أعتقد الآن أنها فعلت.

لم يكن هناك من يمكنني إخباره بذلك –ليس قبل فترة طويلة، قبل أن تقول مارغريت أنّي بتُّ بمفردي على الطريق– وهكذا كان ينبغي أن يكون. على الأقل لأن هناك رباطا بيني وبين الماضي لإعادة تقييم الأحداث، دونما شيء سوى الشعور بالذنب من وجود الصّحبة.

وبعد إعادة التفكير في شخصية فيرونيكا وحياتها، وجدت أنه عليّ أن أعود لماضيّ وعلاقتي بأدريان. صديقي الفيلسوف، الذي حدق في الحياة فقرر أن أي فرد مسؤول عاقل له الحق في رفض تلك المنحة التي لم يطلبها أبدا، وأن إشارته النبيلة أعادت التأكيد مع مرور السنوات على التوافُق والضآلة القائمة عليها حياة معظم البشر، أعني: حياتي

تلك الصورة إذن –هذا التّوبيخ الحيّ المتكرر لما تبقى من وجودي– يأخذ الآن شكلا مختلفا. كنا قد اتفقنا أنا وألكس أن "حياة من الدرجة الأولى، انتحار من الدرجة الأولى" لكن أيّ أدريان سيصير لديّ الآن بدلا من ذلك؟ أدريان الذي حملت منه صديقته، ووجد نفسه غير قادر على تحمّل تبعات الموقف، فقرّر اختيار "أسهل وسيلة للهرب" كما يقولون. ليس أن الأمر سهل، ذلك التوكيد النهائي على الفرديّة إزاء العموميّة الشاملة التي تقهر الفرد. إلا أنه يتحتم عليّ الآن أن أعيد تقييم أدريان، أغيّر موضعه من الثّائر على الذين يكتفون بالاقتباس من كامو[12] الذي يمثّل الانتحار بالنسبة له سؤالا فلسفيا حقيقيا، إلى... ماذا؟ ليس أكثر من نسخة أخرى من روبسون الذي لم يكن بالضبط "موضوعًا لإيروس وثانتوس" كما عبّر عنه ألكس وقتها، حين غادر ذلك الفتى

(12) ألبير كامو: روائي فرنسي، من أعلام الحركة الوجودية؛ ويمثل الانتحار جزءا أصيلا في كتابته.

غير المميز –حتى اليوم– في الصفّ السادس العلمي هذا العالم تاركا رسالة "معذرة، ماما"

وقتها، أخذنا نحن الأربعة نخمن شكل صديقة روبسون، من عذراء جادة ومتزمتة إلى عاهرة مبهرجة. لم يفكر أحد منّا في الطفل، أو في المستقبل. والآن، للمرة الأولى أفكر فيما يمكن أن يكون قد جرى لصديقة روبسون، ولطفله. لعل الأم تقاربني في العمر، ولعلها ما تزال على قيد الحياة، بينما الطفل في حدود الخمسين. تراه ما يزال يعتقد أن "بابا توفي في حادثة"؟ لعله أرسل لأحد دور التبنّي، وكبر وهي يشعر أنه غير مرغوب فيه. إلا أنه من حق ابناء التبنّي اليوم أن يتتبعوا مسار أمهاتهم بالميلاد. تخيلت حدوث ذلك، وموقف اللقاء العسير المؤثر بينهما. وجدتني أرغب – رغم مرور تلك السنوات– في الاعتذار لصديقة روبسون حول الطريقة التافهة التي ناقشنا بها أمرها، دون التفكير فيما عانته من ألمٍ أو شعور بالعار. كان جانبٌ مني يريد الاتصال بها لأسألها أن تسامحنا على أخطائنا القديمة، حتى وإن كانت لا تعلم أي شيء عنها.

غير أن التفكير في روبسون، وصديقته، كان مجرد طريقة لتجنب التفكير في الحقيقة القائمة حول أدريان. كم كان عمر روبسون وقتها، خمس عشرة سنة، ست عشرة؟ ما يزال يعيش في المنزل مع والديه الذين لم يكونا –بالتأكيد– متحررَين تماما. فضلا عن أن الفتاة كانت دون السادسة عشر، لذا كان يمكن أن تقوم تهمة

اغتصاب كذلك. لم يكن هناك أدنى مجال للمقارنة؛ أدريان كان راشدا، غادر المنزل منذ فترة، ويتجاوز ذكاؤه بمراحل ذكاء روبسون التعيس. أضِف إلى ذلك أنه، أيامها، إذا حملت منك ورفضت إجراء إجهاض، فإنه يتعين عليك الزواج بها: كانت هذه هي القواعد. لم يكن بإمكان أدريان مواجهة تلك القواعد التقليدية "هل تظن أن السبب هو ذكاؤه الشديد؟" سألت أمي بشكل مثير للأعصاب. كلا، لم يكن للأمر علاقة بالذكاء، ولا حتى بالشجاعة الأخلاقية. أدريان لم يرفض منحة الوجود -كما كان يردد- لكنه كان مجرد شخصًا خائفًا من الانتقال بعربة أطفال في صالة الانتظار.

ماذا عرفتُ عن الحياة، أنا الذي عشتُ بكل ذاك الحذر؟ أنا الذي لم أربح ولم أخسر، لكني تركت تيار الحياة يحملني فحسب؟ الذي كان لديه الطموح المعتاد، وترسّب سريعا فلم يتحقق منه أي شيء؟ أنا الذي تجنّب الألم وأطلق على ذلك مهارة البقاء؟ أنا الذي دفع فواتيره، حافظ على علاقته الطيبة بالجميع قدر المستطاع، الذي كانت كلمات "الإحباط" و "النشوة" مجرد كلمات يقرؤها في الروايات؟ الذي لم يسبب له توبيخه لنفسه أي ألم حقيقي؟ حسنا، كان كل ذلك يدور في ذهني وأنا أتجرع ذلك الشعور بالذنب: وجع يتمدّد ويبقى مع شخص ظنّ أنه دائما بوسعه تجنّب الوجع. والمفارقة أنه تمدّد لهذا السبب ذاته.

"اخرُج" صاحت فيرونيكا وقد تجاوزت الرصيف بسرعة عشرين ميلا في الساعة. أمنحُ الآن الكلمة رنينها الأكثر اتساعا: اخرج من حياتي، لم أرِدك أبدا أن تكون قريبا مني ثانية. لم يكن ينبغي عليّ أن أوافق على اللقاء، فضلًا عن تناول الغداء، أو اصطحابك لرؤية ابني! اخرُج، اخرُج.

لو كنتُ أعرف عنوانها، لكنت أرسلت رسالة مهذبة. لكنّي، بدلًا من ذلك، عنوَنتُ رسالة البريد الإلكتروني "اعتذار" ثم غيّرتها مستخدما الأحرف الكبيرة[13]، لكنها بدت صارخة تماما، فغيرتها ثانية. لم يكن أمامي سوى أن أكون مباشرا.

عزيزتي فيرونيكا

أدركُ أنّي آخر شخص ترغبين في سماعه الآن ربما، لكني أتمنى أن تقرئي هذه الرسالة حتى نهايتها. لا أتوقع منك الإجابة، غير أني أمضيت وقتا في إعادة تقييم الأمور، وأرغب في تقديم الاعتذار لك. لا أتوقع أن يتحسن رأيك فيّ، بل ربما يسوء. تلك الرسالة التي بعثتُ بها لا تغتفر. كل ما أستطيع قوله هو إن كلماتي الحقيرة تلك كانت تعبيرا عن انفعال لحظي: كانت قراءتها صادمة لي بعد كل تلك السنوات. لا أتوقع منك أن تمنحيني مذكرات أدريان. لو كنت قد قمت

(13) APOLOGY 4.

بإحراقها، فإن الأمر منتهٍ، وإن لم تكوني أحرقتها، فهي دون شك مكتوبة من أبٍ لابنك، وهي من حقك. يدهشني أن والدتكِ تركتها لي في المقام الأول، لكن هذا لا يهم.

يؤسفني أن أكون مثيرا للغيظ لهذه الدرجة؛ كنت تحاولين أن تُريني شيئا ما وأنا كنت أغبى من أن أفهم. أرجو لك، أنت وابنك، حياة سالمة، بقدر ما تسمح الظروف بذلك. ولو وجدت أنه يمكنني تقديم أي شيء في أي وقت، أرجو ألا تتردّدي بالاتصال.

المخلص، توني

كان ذلك أفضل ما يمكنني فعله. لم يكن كما أردت لكني على الأقل كنت أعني كل كلمة فيه. لم أكن أحمل أيّ نيّة مستترة. لم أكن أرجو أي شيء من وراء تلك الرسالة. لا المذكرات، ولا رأي فيرونيكا الطيب، ولا حتى قبول اعتذاري.

لا يمكنني أن أقول ما إذا كان شعوري قد صار أفضل أو أسوأ بعد إرسال الرسالة. كنت منهكا، فارغا. لم أجد أدنى رغبة في أن أحكي لمارغريت عما حدث. وجدتني أفكر في سوزي، وفي مدى الحظ الذي يتمتع به الأبوين حين يولد لهما طفل بأربعة أطراف وعقل سليم وطلاء عاطفي يسمح للطفل، للفتاة، للمرأة أن تعيش بعد ذلك حياة سويّة. حياة عادية، مثل تلك التي تمناها

الشاعر لطفلٍ وليد، ذات يوم.

استمرت حياتي. أرشّح الكتب للمرضى، ومن هم في طور النقاهة، والمحتضرين. أقرأ كتابا أو اثنين. أتخلص من القمامة. كتبتُ للسيد جنل وطلبت منه ألا يستكمل السعي في أمر المذكرات. وذات مساء متأخر استجبت لنزوة طارئة وانطلقت بالسيارة نحو الميدان الشمالي. تسوقت قليلا وتناولت العشاء في حانة وليام الرابع. سُئلت ما إذا كنت قد ذهبت في عطلة. في البقالة أجبت "نعم" وفي الحانة أجبت "لا". لم يبد أن الإجابات لها أي قيمة، ولا تأثير. فكرت فيما حدث لي على مرّ السنوات، وكم شاركتُ في تكوين ما تُعتبر إنجازات.

في البداية ظننتها رسالة قديمة ما، غير أن في رأس العنوان كُتبَ "اعتذار" وأسفلها كانت رسالتي؛ لم تقم بمسحها. وردّها: "أنت لم تزل لا تفهم. لم ولن تفهم أبدا. توقف حتى عن المحاولة"

لم أكرر قراءة ذلك الرد ثانية كثيرا. لو لم أكن قد قرّرت حرق جثتي ونثر رمادها لكنتُ طلبتُ منهم كتابة ذلك الشاهد على الضريح "توني وبستر – لم يفهم أي شيء" لكن ذلك سيكون ميلودراميا بامتياز، وربما مثيرا للشفقة. ماذا عن "إنه وحده على الطريق الآن" ربما يكون هذا أدق، أو لعلي أفضّل "كل يوم هو يوم أحد".

من وقت لآخر، كنت أذهب إلى البقالة والحانة مجدّدًا. كان مكانا أشعر فيه بنوع من السلام، حتى وإن بدا ذلك غريبا، وكذلك بنوع من وضوح الهدف، لعله آخر هدف في حياتي. وكما من قبل، لم أشعر أبدا أني أضيّع وقتي. لعل ذلك هو وظيفة وقتي الآن. وكان كلا المكانين أليفا، على الأقل أكثر أُلفة من الأماكن المُعادلة لهما في حياتي. لم يكن لديّ أي خطة: وأين الجديد؟ لم يكن لديّ أي خطة لسنوات. وكانت استعادة الشعور -إن كان هذا ما حدث- نحو فيرونيكا بالكاد توصف على أنها خطّة. الأكثر دقة أنها كانت دافعا مُرضيًا، أو زائدة مضافة لتاريخ قصير من الإذلال. ذات يوم قلت للنّادل:

"هل يمكنك تقطيع البطاطا شرائح نحيلة على سبيل التغيير؟"

"ماذا تعني؟"

"أعني، كما في فرنسا، شرائح نحيلة"

"كلا، لا يمكننا تقديم ذلك"

"لكن قائمة الطعام تقول إن البطاطا يتم تقطيعها يدويا"

"حسنا؟"

"إذن يمكنك تقطيعها لشرائح نحيلة"

بدا وكأن اللطف المعتاد للنّادل قد تم إيقافه. أخذ ينظر إليّ وكأنّه يريد أن يحدّد ما إذا كنتُ رجُلًا أبله أم مجّرد متحذلق سخيف. ربما الاثنان.

"بطاطا يدوية التقطيع هي شرائح البطاطا السميكة"

"لكنها يدوية؛ يمكن أن تكون نحيلة؟"

"نحن لا نقطعها. إنها تصلنا كذلك"

"ألا تقومون بتقطيعها على اللوح في المطبخ؟"

"ذاك ما أجبتُ عليه "

"إذن، ما تطلقون عليه بطاطا يدوية التقطيع هو بطاطا تم تقطيعها في مكان آخر، وغالبا باستخدام ماكينة ما"

"هل أنت من الرقابة أو شيء شبيه بذلك؟"

"إطلاقا. غير أن الأمر بالنسبة لي محير. لم أدرك من قبل أن يدوية التقطيع تعني "سميكة" ولا تعني بالضرورة أنه تم تقطيعها باليد"

"حسنا. ها أنت تعلم الآن"

"آسف. لم أفهم ذلك من قبل"

عدتُ إلى طاولتي وانتظرت العشاء.

ثم، بغتة، دخل مجموعة الخمسة إلى المكان بصحبة القائم بالخدمة الاجتماعية الذي رأيته مع فيرونيكا. توقف الرجل ذو الشارة عند مروره بطاولتي ومنحني انحناءته المهذبة، فرنّت الشارات المعلقة على كتفيه. تبعه الآخرون، وحين رآني ابن أدريان استدار جانبا كأنما ليبقيني -أنا والحظ السيّء- بعيدين. عبرت المجموعة نحو الناحية الأخرى لكنهم لم يجلسوا، وطلب الرجل الذي يصاحبهم المشروبات لهم.

وصل طبق السّمك الخاصّ بي والبطاطا -المُقطعة يدويًا- في طبق من الفخار على ورق جرائد. لعلّي كنت ابتسم بيني وبين نفسي حين وجدت ذلك الشاب واقفا عند طاولتي.

"هل تمانعُ لو تحدّثنا؟"

"لا، إطلاقًا"

أشرتُ إلى الكُرسيّ المقابل. لاحظتُ، بينما يجلس ناظرًا خلف كتفيه، أنّ خمسَتَهم يحدقون فيّ، يمسكون أكوابهم ولا يشربون.

"أنا تيري"

"توني"

تصافحنا بتلك الطريقة الميكانيكية لاثنين يجلسان متقابلين. بقيَ صامتا فترة.

"بطاطا؟" قلتُ مقترحًا.

"لا شكرًا"

"هل تعلم أنهم حين يكتبون "بطاطا مقطعة يدويا" في قائمة الطعام فإنهم يقصدون شرائح البطاطا السميكة، ولا يعنون أبدًا أنّهم فعلًا يقطّعونها باليد.

نظر إليّ كما نظر النّادل من قبله.

"الأمر متعلق بأدريان"

أدريان. كررتها بيني وبين نفسي. لماذا لم أفكر في اسمه من قبل؟ وأي اسم آخر كان يمكن أن يطلق عليه؟

"وجودك يضايقه"

"معذرةً" أجبته "إن آخر ما أريده هو أن أضايقه. لا أريد أن أضايق أيّ أحد. إطلاقًا"

نظر إليّ متشكّكًا ما إذا كنت أتهكم عليه. "حسنًا. لن يراني بعد ذلك. سأنتهي من طعامي وأمضي، ولن يراني منكم أحد بعد ذلك"

أومأ برأسه، ثم سأل "هل يمكنني أن أسأل مَن تكون؟"

"من أكون؟ يمكنك أن تسأل طبعًا. اسمي توني وبستر. كنتُ صديقًا لوالد أدريان، منذ زمن بعيد، كنت معه في المدرسة. كنت، كذلك أعرف والدته فيرونيكا. ثم ما لبثنا أن فقدنا الاتصال. لكننا التقينا أكثر من مرّة خلال الأسابيع الماضية، أو الشهور الماضية، لو شئنا الدقة"

"أسابيع وشهور؟"

"نعم، رغم أني لن أرى فيرونيكا ثانية، فهي لم تعد ترغب في رؤيتي"

حاولت أن اقول ذلك بطريقة محايدة، غير مثيرة للشفقة.

نظر لي "أنت تعرف أنه ليس بإمكاننا مناقشة تاريخ نزلائنا مع أيّ أحد، فتلك أمورٌ سريّة"

"طبعًا"

"لكن ما قلته الآن ليس له أيّ معنى"

فكّرتُ في ذلك "آه، فيرونيكا. أنا آسف. تذكّرت أن أدريان يُناديها باسم ماري. أعتقد أن هذا هو اسمها بالنسبة له. هذا هو اسمها

الثاني. لكنّي أعرفها باسم فيرونيكا"
كنت أرى خمستهم من خلفه يقفون في قلق، لم يبدؤوا الشُّربَ بعد. يراقبوننا. كنت خجِلا من وجودي الذي يبدو أنّه أزعجهم.

"لو أنّك صديق والده..."

"ووالدته..."

"أظن إذن أنك لا تدرك الأمر..." على الأقل عبّر عن المعنى بطريقة مختلفة عن الآخرين.

"فعلًا؟"

"ماري ليست والدته. ماري أخته. والدة أدريان توفيت منذ ستة أشهر. وقد تأثّر بشدّة. لذلك كان يعاني من... من مشاكل مؤخّرًا"

بشكل تلقائي، وضعتُ قطعة بطاطا في فمي. ثمّ أخرى. لم يكن عليها ما يكفي من الملح. هذا هو عيب شرائح البطاطا السّميكة؛ كثير من البطاطا في الدّاخل. بخلاف الشرائح النحيلة التي بخلاف أنها مُقرمشة، فإن الملح يتمّ توزيعه بشكل جيد عليها أيضًا.

كل ما أمكنني فعله هو الإمساك بيد تيري وتكرار وعدي "أرجو أن يصير بخير. أنا واثق أنّك ستقوم برعايته. جميعهم يبدون في تحسّن. خمستهم"

اعتدل واقفًا "حسنا، نحن نقدم أقصى ما لدينا غير أن ميزانية الدعم تتناقص عاما بعد آخر"

"حظًّا طيّبًا للجميع"

"شكرًا لك"

حين دفعتُ الحساب، تركت ضعف البقشيش المعتاد. تلك على الأقل محاولتي لأن أكون مُفيدًا بشكلٍ ما.

لاحقًا في المنزل، بينما أتأمّل ذاك كلّه بعد مُضيّ بعض الوقت، أدركت كل ما حدث. فهمتُ لماذا كانت مذكّرات أدريان في حوزة السيّدة فورد أوّلًا. ولماذا تركَت ملحوظة تقول فيها إن "الشهور الأخيرة في حياته كانت سعيدة"، وماذا كان القائم بالرعاية الاجتماعية يقصد حين قال "لا سيّما الآن"، وما الذي كانت فيرونيكا تعنيه بقولها "النقود الدمويّة." ثمّ أخيرًا ما الذي كان أدريان يتحدث عنه في الصفحة التي سُمح لي برؤيتها. يمكن التعبير عن تراكم يتضمَن الأعداد ف، س، ط، $أ^{1}$، $أ^{2}$ وهكذا يمكن لصيغتين أن تُعبّرا عن نوعين محتملين من التراكم. بات الأمر واضحًا الآن. $أ^{1}$ ترمز لأدريان، و $أ^{2}$ هو أنتوني – كما اعتاد أن يخاطبني. ط ترمز للطفل، المولود لأمّ – "الأمّ" التي كانت في سِنٍّ خطِرة متقدّمة. يولد الطّفل مصابًا بالتّلف لأن والدته كبيرة في السنّ. ذاك الطفل بات الآن رجلًا في الأربعين من عمره، تائهًا في تعاسته، ويُنادي أخته باسم ماري... نظرتُ إلى سلسلة المسؤولية. رأيتُ دوري الاستهلالي هناك. تذكرت أني في تلك الرسالة القبيحة طلبت من أدريان أن يستشير والدة فيرونيكا. أعدتُ تذكّر الكلمات التي لن أنساها ما حييت، كما لن أنسى كلمات أدريان

في العبارة غير المكتملة "إذن، لو أن توني مثلًا..." مُدركًا أنه ليس بوسعي تغيير أو إصلاح أي شيء الآن.

تصل إلى نهاية الحياة – لا، ليس الحياة نفسها، لكن شيء آخر: نهاية أيّ احتمال لتغيير شيء في تلك الحياة. يُسمح لك الوقوف في لحظة صمت طويلة، وتُعطى وقتًا كاف لتتساءل: فيمَ أخطأتُ أيضًا؟ فكّرتُ في أولئك الأطفال في ميدان ترافلجار. فكّرتُ في فتاةٍ رقصت مرّة واحدة في حياتها. فكّرتُ في ما لا يمكنني معرفته أو فهمه الآن. فكّرت في تعريف أدريان للتاريخ. فكّرت في ابنه الذي يُخبّئ وجهه في صفّ رفوف المناديل في البقالة كي يتجنّب رؤيتي. فكّرت في امرأة تَقلي البيض بحريّة، غير عابئة ببيضة منها انكسرت، ثم فكّرت في المرأة ذاتها وهي تُرسل إشارة سِريّة أُفقيّة عابرة تحت الستارة في ضوء الشمس. وفكّرتُ في موجةٍ تتكسّر تحت ضوء القمر، ثم تختفي في تيّار متلاطم، وحولها طَلَبة بكشّافاتهم التي تُضيء العتمة.

ثمّة تراكم. ثمّة مسؤولية، وبعد كل ذلك، ثمّة قلق. ذاك القلق الكبير.

دليل القارئ إلى تحليل الرواية

1. ماذا يُقصد بالعنوان؟
2. تُفتتح الرواية بمجموعة من الصّور التي يرد فيها كلّها عُنصُر الماء، ما أهميّة كل صورة؟ وكيف جعل بارنز من الماء استعارة؟
3. تكررّت عبارة "إيروس وثاناتوس"، أو الجنس والموت، مرارًا وتكرارًا، في رأيك، كيف وُظّفَت تلك العبارة في الرواية؟
4. في المدرسة، يقول أدريان أننا بحاجة إلى معرفة تاريخ المؤرخين لفهم النّسخ المختلفة من التاريخ نفسه التي يتم طرحها أمامنا. كيف ينطبق هذا على ما رواه توني؟
5. هل توني يحب فيرونيكا؟ كيف أثرت عطلة الأسبوع التي قضتها فيرونيكا مع عائلتها على علاقتها بهم؟
6. عندما قالت السيدة فورد لتوني " لا تدع فيرونيكا تنجو بالكثير" ما الذي كانت تقصده بذلك؟ ما سبب الأهمية الكبيرة لهذه الجملة؟
7. اتهمت فيرونيكا توني بأنه جبان، في حين كان توني يرى نفسه شخصًا مسالمًا، أي منهما كان تقييمه لشخصية توني أدق؟
8. اشرح استعارة " ظاهرة ارتفاع المدّ في نهر سيفرن ". لماذا

تغيرت طريقة تذكُّر توني لفيرونيكا؟ وما الذي يعنيه ذلك عن الرّاوي والمعلومات التي يوردها؟

9. لماذا حذّر توني أدريان من أن فيرونيكا تعاني من مشكلات منذ فترة طويلة؟ ما الذي جعله يشك في شيء من هذا القبيل؟ هل تعتقد أنه يعتقد ذلك حقًّا؟

10. بالإضافة إلى تصريح أدريان السابق بشأن التاريخ، قدّم بارنز نظريات أخرى، حيث يقول أدريان أنّ التاريخ هو تلك الحقيقة التي نصل إليها عند النقطة التي تتلاقى فيها عيوب الذاكرة مع مشكلات التوثيق. ويقول توني أن التاريخ ليست الأكاذيب التي يرددها المنتصرون، بل ذكريات الناجين ومعظمهم ليس منتصرًا ولا مهزومًا. أي من هذه المفاهيم المتقاربة تعتقد أنها أكثر دقة؟ ما الذي يؤمن به توني حقًّا؟

11. ناقش شخصية مارغريت. وما الدور الذي تلعبه في قصة توني؟

12. لماذا كتبت السيدة فورد وصيتها لتوني بعد سنوات عديدة؟ ولماذا كانت فيرونيكا تصف الخمسة آلاف جنيه بالمال المُلطّخ بالدماء؟

13. بعد إعادة قراءة الرسالة التي أُرسلت إلى أدريان وفيرونيكا، ادّعى توني أنه يشعر بالندم، فهل تصدقه؟ عمّ تخبرنا الأفعال التي قام بها فيما بعد؟

14. عندما رفضت فيرونيكا تسليم اليوميات إلى توني، لماذا لم ييأس توني؟ ولماذا استمر في الإصرار على أخذها منها؟

15. ما رأي توني عن نفسه وعن أدريان؟ كيف تغير كلا الرأيين في نهاية الرواية؟

16. كيف أسهم ما كشفت عنه الرواية في صفحاتها الأخيرة في تغيير فهمك لأفعال فيرونيكا؟

17. هل فكّكت رموز المعادلات الحسابيّة؟ ما الذي تعنيه تلك المعادلات؟

18. ناقش السّطر الختاميّ للرواية: " ثمّة تراكم. ثمّة مسؤولية، وبعد كل ذلك، ثمّة قلق. ذاك القلق الكبير."

جوليان بارنز

وُلد جوليان بارنز في مدينة ليستر في إنجلترا عام 1946 . يُعتبر أحد أهم الكتاب الإنجليز المعاصرين، ويُشار إليه بأنه أحد أعلام حركة ما بعد الحداثة الأدبية في إنجلترا. درس اللغات الحديث في جامعة أوكسفورد، وعمل مدّة ثلاث سنوات كمُعجميّ لاستكمال قاموس أوكسفورد الشّهير. نشر روايته الأولى عام 1980 وتتابعت مؤلّفاته بعد ذلك بين الروايات والقصص والمقالات والرسائل، منها "ببّغاء فلوبير" و"تاريخ العالم في عشرة فصول ونصف" و"آرثر وجورج." حصد كثيرًا من الجوائز التكريميّة والتشريفيّة والمسابقات. دخلت رواياته قائمة جائزة البوكر القصيرة ثلاث مرات، وفاز بها أخيرًا عن رواية "الإحساس بالنهاية".


مكتبة .. هنا سور الأزبكية على التليجرام
mohamed khatab

طلال فيصل

كاتب ومترجم وطبيب نفسي مصري. ترجم عددًا من الروايات والحوارات الصحفية والمختارات عن الإنجليزية والفرنسية، منها (جنون المتاهة) رواية آدم فولدز، و(ذكريات تراني) مذكّرات توماس ترانسترومر، و(كرامة: رحلات في الربيع العربي) كتاب رحلات جوني وِست في مصر وليبيا وتونس.

ينسحب المراهق توني ويبستر من علاقة حُبّ جمعته بفرونيكا، ليجدها تصاحب أعزّ أصدقائه فورًا، فقد بعثا له برسالة طالبَين منه أن يتفهّم الأمر. فأجاب على رسالتهما، ثم عاش بعدها أربعين عامًا خالي البال، مرتاحًا، حتى بات رجلًا في منتصف عمره: تزوّجَ وأنجب وتقاعد من عمله. ثمّ تصله رسالة تنسف تلك الأعوام الطويلة من عمره كلّها؛ تُعيده إلى علاقةٍ نسيها تمامًا، فينفتح له باب لا يوصف سوى بأنّه يقود إلى جحيم النّدم. لقد ترك وراءه أمورًا كبُرَت في غيابه وتوحّشت مثل أشجار الغابة، وبات عليه العودة لمواجهتها.

بأسلوب أدبيّ يوصف بأنّه ما بعد حداثي، يقدّمه لنا أحد كُتّاب إنجلترا المعاصرين الكبار، نُطالع رواية فلسفيّة تُسائل مفاهيم الزّمن والذاكرة والتاريخ: هل البحث عن الذات رحلة متواصلة؟ وهل النّضج والتقدّم في العمر لا يعِدان بالرّاحة والحياة السّعيدة كما يظنّ الجميع؟ تقول الرواية: «التّاريخ ليس أكاذيب المنتصرين، إنّه أقرب لأن يكون ذكريات النّاجين: أولئك الذين لم ينتصروا، ولم ينهزموا.»

الرواية الفائزة بجائزة المان بوكر 2011

«جوهرةٌ من الدقّة والحِرَفيّة... إنّها تشحنُ في صفحات وجيزة الكثير، وتُعطي القارئ شعورًا بالرّضا لا يستقيه غالبًا سوى من روايات ذات حجم ضعف حجمها...»
The Los Angeles Times

«كثيفة بالأفكار الفلسفيّة، لكنّها تنجح في خلق إثارة هادئة كتلك التي نعثر عليها في روايات التحريّات»
The New York Times

«ذكيّة، استفزازيّة... تُقدّم فهمًا للذّاكرة واختبارًا لكيفيّة عملها؛ كيف تحوّل الانطباعات وتخزّنها بعيدًا وتستعيدها بشكل مختلف...»
The Minneapolis Star-Tribune


ISBN 9789948101079

